الفصل الثالث

مفهوم علم البيان لدى البلاغيين بين القدماء والمحدثين

التمهيد

في هذا الفصل يحاول الباحث التعرف على مفهوم البيانية لدى البلاغيين بين التراث العربي القديم وبين الدراسات الحديثة المعاصرة، ولهذا جاء هذا الفصل في مبحثين، الأول منها إلقاء الضوء مفهوم الفن لغة واصطلاحا، أما المبحث الثاني فقد اختص هذا الفصل لبيان الفنون البيانية عند البلاغيين؛

المبحث الأول: مفهوم الفنّ لغة واصطلاحا

ثمة صعوبة في تحديد دقيق لمفهوم الصورة وتعريفها تعريفا جامعا لكل أنواع الفن ومانعا لغيرها مما لا يدخل في حيزه، ولعل صعوبة تحديدها أمر يشترك فيه مع غيره من المصطلحات النقدية غير المستقرة في بعض الأحيان وتعود أغلب جوانب صعوبة مفهوم محدد للفنّ إلى حملها لدلالات مختلفة وترابطات متشابكة وطبيعة مرنة تتأبى التحديد الواحد المنظر ومحاولة تتبع مفهوم الفنّ لدى النقاد والبلاغيين أمر غير سهل لا يمكن الإحاطة به في بحث أو دراسة أو مقال، لأن كنه هذا المصطلح ما زال غامضا ينظر إليه النقاد من خلال مشاربهم الثقافية المتنوعة ومذاهبهم الأدبية المختلفة، لذلك جاءت الدراسات النقدية متباينة في فهمها كما جاءت تطبيقاتها في الشعر مختلفة من مناهجها ونتائجها.

أ- مفهوم الفنّ لغة

الفنون: جمع الفنّ، هو الضربُ من الشيء أو النوع هو تطبيق الفنّان معارفة على ما يتناوله من صور الطبيعة فيرتفع به إلى مثل أعلى تحقيقا لفكرة أو عاطفة يُقصَد بها التعبير عن الجمال الأكمل تلذيذا للعقل والقلب فنون الشعر: أنواعه الفنون الجميلة: هي ما كان موضوعها تمثيل الجمال كالموسيقي والتصوير والشعر والبلاغة والنحت وفن البناء والرقص[٨٥].

ب- مفهوم الفنّ في الاصطلاح

لو رجعنا إلى الأصل في استقاق كلمة (الفن) باليونانية لوجدنا أن هذه الكلمة تعني (النشاط الصناعي النافع بصفة عامة). ولم يكن لفظ الفنّ عندهم مقتصرا على فن الشعر والنحت والموسيقي والغناء بل كل ما يشمل الصناعات المهنية كا لنجارة والحدادة والبناء، ولعل ما يشيره الفنّ عند اليونانيين هو حصيلة القدرة البشرية ما دام الإنسان هو الصانع فهو يستحدث الموضوعات والأدوات ويتيح أشياء جديدة الأمر الذي جعل الفلاسفة أن يضعوا الفنّ مقابل الطبيعة[٨٦].

الفنّ: هو التطبيق العملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها، ويكتسب بالدراسة والمرانة، وجملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة، وجملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال، كالتصوير والموسيقي والشعر، ومهارة يحكمها الذوق والمواهب[٨٧].

---

[٨٥] *المنجد في اللغة والأعلام*، ٢٠٠٨م. ط٤٣. حرف ف. ص٥٩٦.

[٨٦] إبراهيم، زكرياء. ١٩٧٧م. *فلسفة الفنّ في الفكر المعاصر*. دار مصر للطباعة. ص١٢.

[٨٧] معجم اللغة العربية. ١٩٧٢م. *المعجم الوسيط*. ج١. المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر. ٧٠٣.

المبحث الثاني: مفهوم البيانية عند البلاغيين

يعرف علم البيان عند البلاغيين "بالفنون البيانية" أو "الألوان البيانية أو الفنون البيانية" أو "اللون الخيالي"[٨٨]

وقد اهتم علماء البلاغة "علم البيان" بشرح وتفصيل إذ تبرز في هذه الطرق مهارات المتكلمين في الإبانة عما يريدون التعبير عنه مقرونة هذه الإبانة بصور جمالية ذات تأثير في النفوس، وإمتاع للأذهان ورياضة بديعة للأفكار. الفنون البيانية عند علماء البلاغة وخاصة المتأخرين منهم تدور حول التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية[٨٩].

والبيان لغة الكشف والإيضاح والظهور، واصطلاحا أصول وقواعد يعرف بها يراد المعنى الواحد بطرف مختلفة بعضها عن بعض في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى[٩٠].

ووردت كلمة البيان ومستقاتها كثيرا في كتاب الله تعالى، وفي سنة الرسول الله صلى الله عليه وسلم. فعلى حين نقرأ في كتاب الله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ "[٩١] والمعنى المتبادر لهذه الآية هو الظهور والكشف والإيضاح، فالله تبارك وتعالى يبن آياته للناس، فبوضحها وبكشفها، فلا ينبغى فيها أي خفاء، والنبي صلى الله عليه وسلم يبين ما نزله الله فبشرحه، ويرشد إلى ما فيه من أسرار ودقائق، وقد

---

[٨٨] أبو موسى، محمد . ٢٠١٤م. *التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البياني*. ط٨. القاهرة: مكتبة وهبة. ص٢٢.

[٨٩] كامل المهندس، ومجدي وهبة. ١٩٨٤م. *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب*. ط٢. مكتبة لبنان. ص٢٦.

[٩٠] الهاشمي، السيد أحمد. د.ت. *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*. بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية. ص١٩٧.

[٩١] القرآن . البقرة ١: ١٨٧

يكون هذا البيان من الرسول صلى الله عليه وسلم توضيحا لمبهم، أو تفصيلا لمجمل، أو تقييداً لمطلق، وقد يكون غير ذلك مما ذكر في موضعه.[٩٢]

والبلاغة قد مرَّت بتاريخ طويل من التطور حتى انتهت إلى ما انتهت إليه، وكانت مباحث علومها مختلطًا بعضها ببعض منذ نشأة الكلام عنها في كتب السابقين الأولين من علماء العربية، وكانوا يطلقون عليها (البيان)[٩٣].

وقد أخذت الملاحظات البيانات تنشأ عند العرب منذ العصر الجاهلي، ثمّ مضت هذه الملاحظات تنمو بعد ظهور الإسلام لأسباب شتى، منها تحضر العرب، واستقرارهم في المدن والأقطار المفتوحة، ونهضتهم العقلية، ثمّ الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة والسياسة. فكان طبيعيا لذلك كله أن تكثر الملاحظات البياينة والنقدية تلك التي نلتقي بها في تراجم بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين في كتاب مثل كتاب الأغاني[٩٤].

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي فإننا نجد بالإضافة إلى نمو الملاحظات البلاغية محاولات أولية لتدوين هذه الملاحظات وتسجيلها، كما هو الشأن في كتب الجاحظ، وخاصة كتاب "البيان والتبيين". وقد أدّى إلى هذه النقلة الجديدة عوامل منها تطور الشعر والنثر بتأثير الحضارة العباسية، ورقي الحياة العقلية فيها، ومها ظهور طائفتين من العلماء المعلمين عنيتا بشؤون اللغة والبيان، إحداهما طائفة محافظة هي طائفة اللغويين، وهؤلاء كانوا يعلمون رواية الأدب وأصوله اللغوية والنحوية، وكان اهتمامهم بالشعر الجاهلي والإسلامي أكثر من اهتمامهم بالشعر العباسي، وقد هداهم البحث في أساليب الشعر القديم

---

[٩٢] حسن عباس، فضل. ٢٠٠٨م. البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع. ط١٢. دار النقائس. ص٩.

[٩٣] عتيق، عبد العزيز. ٢٠٠٤م. *علم البيان*. القاهرة: دار الأفاق العربية. ص٧.

[٩٤] عتيق، عبد العزيز. ٢٠٠٤م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٨.

من ناحيتها اللغوية والنحوية إلى استنباط بعض الخصائص الأسلوبية على نحو ما نجد في كتاب سيبويه من مثل كلامه عن التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، ونحو ذلك[٩٥].

كذلك نلتقي بكتاب "معاني القرآن" للفرّاء الذي يعني فيه بالتأويل وتصوير خصائص بعض التراكيب، والإشارة إلى ما في آي الذكر الحكيم من الفنون البيانية.

ثمّ نلتقي بكتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى الذي كان معاصرا للفراء، وهذا الكتاب لا يبحث في مجاز القرآن من الجانب البلاغي، وإنّما هو بحث في تأويل بعض الآيات القرآنية، وأبو عبيدة هذا هو أوّل من تكلّم بلفظ المجاز، كما ذكر ابن تيمية في كتابه "الإيمان" ولكنه لم يتكلّم عن المجاز الذي هو قسيم الحقيقة، وإنما المجاز عنده يعني بيان المعنى. ومع هذا فقد وردت في كتابه "مجاز القرآن" إشارات إلى بعض الأساليب البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وبعض خصائص التعبير النحوية التي لها دلالات معنوية من مثل الذكر والحذف والالتفات والتقديم والتأخير[٩٦].

ومع ما اهتدى إليه كل من الفراء وأبي عبيدة من السمات والخصائص والبيانية فإنَّ مدلولاتها البلاغية لم تتبلور وتحدد في ذهن أي منهما أو من اللغويين والنحاة المعاصرين لهما.

أما طائفة العلماء المعلمين الأخرى التي ظهرت في العصر العباسي فهي طائفة علماء الكلام وفي طليعتهم المعتزلة الذين كانوا يدربون تلاميذهم على فنون الخطابة والجدل والبحث والمناظرة في الموضوعات المتصلة بفكرهم الاعتزالي. وكان هذا التدريب يعمق ويمتد حتى يشمل الكلام وصناعته وقيمته البلاغية والجمالية[٩٧].

---

[٩٥] عتيق، عبد العزيز. ٢٠٠٤م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٨.

[٩٦] عتيق، عبد العزيز. ٢٠٠٤م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٨-٩.

[٩٧] نفس المرجع. ونفس الصفحة.

وقد حفظ لما في كتاب البيان والتبيين للجاحظ قدرًا كبيرًا من ملاحظات المعتزلة المتصلة بالبلاغية العربية، وهذه قد استقوها من مصدرين هما: التقاليد العربية، والثقافات الأجنبية التي شاعت في عصرهم واطلعوا عليها. فالثقافات الأجنبية التي أخذوها أنفسهم بدراستها وتعمَّقوا في فلسفتها ومنطقها قد عادت بفائدتين لهما أثرهما في شؤون البلاغة: فائدة عقلية بحتة مصدرها دراسة الفلسفة الإغريقية التي نظمت عقولهم تنظيمًا دقيقًا أعانهم على استنباط القضايا البلاغية، وفائدة أخرى ترجع إلى طلبهم معرفة ما في ثقافات الأمم الأخرى التي وصلت إليهم من قواعد البلاغة والبيان[٩٨].

ويتضح ذلك حين نجد الجاحظ المعتزلي يورد في كتابه البيان والتبيين تعاريف اليونان والفرس والهند للبلاغة وهذا يعني أن المعتزلة أخذوا يضيفون إلى ملاحظات العرب الخاصة في البلاغة ملاحظات الأمم الأجنبية وخاصة اليونان، ومضوا من خلال ذلك ينفذون إلى وضع المقدمات الأولى لقواعد البلاغة العربية[٩٩].

وأوَّل معتزلي خطا خطوة ملحوظة في هذا السبيل هو رئيس المعتزلة ببغداد بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ للهجرة، فعنه نقل الجاحظ صفحا نثر فيها بشر ملاحظات دقيقة في البلاغة، تلقفها من جاء بعده من العلماء، واستعانوا بها على بلورة بعض أصول البلاغة وقواعدها.

ولعلَّ أكبر معتزلي جاء بعد بشر بن المعتمر وأولى البلاغة العربية عناية فائقة هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة. فقد ألَّف في البلاغة كتاب "البيان والتبيين" في أربعة مجلدات ضخام جمع فيها معظم ما انتهى إلى عصره من ملاحظات بلاغية، سواء ما اهتدى إليه علماء العربية بأنفسهم أم ما جاء إليهم منقولًا عن آداب الفرس والهند واليونان وغيرهم أو عن طريق ما قاله

---

[٩٨] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٩.

[٩٩] حسن عباس، فضل. ٢٠٠٨م. البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع. ط١٢. دار النقائس. ص١١

بشر بن المعتمر وكان به سابقًا لعصره في ميدان البلاغة. وهذا بالإضافة إلى آراء الجاحظ وملاحظاته الخاصة في القضايا البلاغية، ولا سيما ما يتصل بالتشبيهات والاستعارات والمجازات التي هي موضوع "علم البيان"[١٠٠].

وقد خطا الجاحظ خطوة غير مسبوقة في ملاحظاته البلاغية، وذلك بالكلام عن التشبيه والاستعارة عن طريق النماذج، مع التفريق بينهما، كما استعمل "المثل" مرادفًا للمجاز وجعله مقابلا للحقيقة، وذلك إذْ يقول عند حديثه عن "نار الحرب" ويذكرون نارا أخرى، وهي على المثل لا على طريق الحقيقة. قال ابن ميادة:

يَدَاهُ يَد تَنْهَلُ بِالْخَيْرِ وَالنَّدَى ** وَأُخْرَى شَدِيدُ بِالْأَعَادِي ضَرِيرَهَا

وَنَارَاهْ: نَارُ كُلِّ مِدْفَـــــــــــع ** وَأُخْرَى يُصِيبُ الْمُجْرِمِينَ سَعِيرهَا[١٠١]

فالمثل المرادف عنده للمجاز قد استعمله مقابلًا للحقيقة، وبهذا كان أوَّل من فطن إلى تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز. ولا شكَّ أنَّ هذا ينفي ما زعمه ابن تيمية في كتابه "الإيمان" من أنَّ تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد القرن الثالث الهجري[١٠٢].

ولعلّ خير من أفاد من ملاحظات الجاحظ البلاغية وبني عليها وطورها هو ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٣٧ للهجرة، في كتاب "المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر"، كما سنرى فيما بعد.

ومجمل القول في الجاحظ من جهة البلاغة أنَّه ألمَّ في كتبه بالأساليب البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وحقيقة ومجاز، ولكنه لم يوردها في تعريفات اصطلاحيات، وإنَّما جاء تعريفه لها والدلالة عليها عن طريق الأمثلة والنماذج لا عن طريق القواعد البلاغية[١٠٣].

---

[١٠٠] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٠.

[١٠١] الجاحظ. أبو عثمان عمرو بن بحر. ٢٠١٣م. *الحيوان*. م٣. ط١. القاهرة: مكتبة سينا. ص١٣٣.

[١٠٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٠-١١.

والمقارنة بينه وبين من تقدموه في هذا الميدان تظهر أنَّه كان بلا شك أقدرهم على إدراك أسرار البلاغة، وأكثرهم اهتداء عن طريق النماذج إلى شتى العناصر أو الأساليب البيانية التي عرفت وحدّدت فيما بعد، وأصبحت تؤلف مباحث البلاغة وموضوعاتها. ولهذا يعدُّ بحق مؤسس البلاغة العربية الأول، ومعبد الطريق أمام من أتى بعده من رجالها[١٠٤].

ثمَّ جاء من بعده متأثرا خطاه وإن لم يكن معتزليا مثله ابن قتيبة الدينورى "٢٧٦ هـ" ففي كتابه "تأويل مشكل القرآن" يتحدَّث أولا عن إعجاز القرآن كرد على الطاعنين في أسلوبه، جهلا منهم بأساليب البيان العربي، ثمَّ ينتقل من ذلك إلى الحديث المبوب عن موضوعات "علم البيان" من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية[١٠٥].

وبعد ابن قتيبة يأتي معاصره أبو العباس المبرد "٢٧٥هـ" بكتابه "الكامل" الذي يجمع بين الشعر والنثر، ويعدُّ من كتب اللغة الممهدة للمعاجم بما تضمنه من تفسير كل ما يقع في نصوصه من كلام غريب أو معنى مغلق.

ومع أنَّ "الكامل" في الأصل كتاب لغة فإنَّ المبرد تعرض فيه شرح النصوص الأدبية لبعض موضوعات البيان مثل المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه الذي توسع في بحثه وقسمه إلى أربعة أقسام: تشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد. وقد استوحى هذا التقسيم مما كتبه الجاحظ عن التشبيه دون أن يضيف هو إليه جديدًا من عنده[١٠٦].

---

[١٠٣] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٠٤] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٢.

[١٠٥] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٢.

[١٠٦] حسن عباس، فضل. ٢٠٠٨م. البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع. ط١٢. دار النقائس. ص١٠

وأوَّل كتاب يلقانا من كتب علماء الكلام الذين اهتموا بالمباحث البلاغية من أجل تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن هو كتاب "النكت في إعجاز القرآن" للرماني المعتزلي[١٠٧].

وقد تحدَّث الرماني فيه عن البلاغة وجعلها في عشرة أبواب يعنينا منها هنا اثنان من أبواب"علم البيان"، هما التشبيه والاستعارة. أمَّا التشبيه فقد قسَّمه إلى حسي وعقلي، ثمَّ فصَّل القول في العقلي منه تفصيلا أفاد منه فيما بعد عبد القاهر الجرجاني في كتاب "أسرار البلاغة". وكذلك توسع في الكلام عن الاستعارة مبينًا قيمتها البيانية، وأنها أبلغ في الدلالة على المعنى من الحقيقة. وكل ما قاله الرماني عن الاستعارة كان رصيدًا جديدًا انتفع به أيضًا فيما بعدُ عبد القاهر وغيرُه من البلاغيين إلى حد كبير[١٠٨].

وكتب "النكت في إعجاز القرآن" بمشتملاته ومضمونه والجديد فيه له أثر واضح في تاريخ البلاغة العربية، فقد عرَّف فيه بعض ألوانها تعريفًا نهائيًا، وميَّز أقسامها وأفاض في شرحها[١٠٩].

تلك نبذة عن مسائل "علم البيان" التي وردت في كتب بعض المتكلمين ممن عنوا بدراسة بلاغة القرآن وأسرار إعجازه. وبالإضافة إلى ذلك ظهرت في القرن الرابع الهجري دراسات نقدية على أسس بلاغية تعرَض فيها إلى مباحث من علم البيان[١١٠].

كتاب الموازنة:

من هذه الدراسات النقددية على تأسس بلاغية كتاب "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي البصري المتوفى سنة ٣٧٠ للهجرة.

---

[١٠٧] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٢-١٣.

[١٠٨] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٣.

[١٠٩] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص١٣.

[١١٠] المرجع السابق. والصفحة نفسه.

والكتاب كما بدل عليه اسمه موازنة بين شعر شاعرين، أو موازنة بين مذهبين في الشعر متقابلين من حيث صنع الشعر ونقده. والمذهب الأول هو مذهب أبي عبادة البحتري ودعاة البلاغة العربية "ممن يفضلون سهل الكلام وقريبه، ويؤثرون صحة السبك، وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والروق". والمذهب الثاني هو مذهب أبي تمام وأصحابه ممن "يميلون إلى الصنعة، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة، ولا تلوي على غير ذلك[١١١].

ومنهاج الآمدي في الموازنة ألا يفصح بتفضيل أحد الشاعرين على الآخر، وإنَّما يعرض بالنقد لحجج المتعصبين لكل منهما، ثمَّ يقرن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى ومعنى، مع بيان أيهما أشعر في تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى، ثمَّ بترك الحكم حينئذ للقارئ على جملة ما لكل واحد منهما، إذا أحاط علما بالجيد والرديء. فالموازنة في الواقع دراسة تطبيقية للفنون والمحسنات في شعر الشاعرين.

وليس يعنينا من الموازن هنا إلاّ ما جاء فيها متصلا بعلم البيان، وهو الباب الذي عقده الآمدي لما عيب من الاستعارة عند أبي تمام، فهو في هذا الباب يذكر القبيح من استعارات أبي تمام، ومصدر هذا القبح في نظره هو غلوّ أبي تمام وإغراقه في استعارته، ويقول: "إنَّ للاستعارة حدا تصلح فيه، فإذا جاوزته فسدت وقبحت". ثم يشير إلى الاستعارة إشارات عامة من غير تحديد لها كقوله: "وإنَّما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه"[١١٢].

---

[١١١] الآمدي، الحسن بن بشر. ١٩٧٥م. *كتاب الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري*. الناشر: دار المعارف مكتبة الخانجي. ص٤-٥.

[١١٢] نفس المرجع. ص٥.

وكان يعنينا من الموازنة أيضا باب آخر متصل بعلم البيان ذكره الآمدي في منهاج بحثه، ولكنه مفقود من الكتاب، وأعني به الباب الذي أفرده لما وقع في شعر أبي تمام والبحتري من التشبيه والمفاضلة بينهما فيه.

وإذا كان هدفنا الأول من وراء هذا التمهيد هو تتبع فنون علم البيان منذ نشأتها حتى أصبحت علما مستقلا بذاته، فإنَّ ذلك لا يمنع من التعليق على رأي الآمدي في الاستعارة بأنَّ التمييز بين الاستعارة الجيدة والاستعارة القبيحة أمر يرجع إلى الذوق المكتسب بالمران والنظر في أقوال الشعراء المجيدين أكثر مما يرجع إلى القواعد التي وضعها لذلك علماء البيان[١١٣].

كتاب الوساطة:

ومن كتب الدراسات النقدية على أسسس بلاغية كتب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني، والمتوفى سنة ٣٦٦ للهجرة.

ومع أنَّ الوساطة كتاب نقد أكثر منه كتاب بلاغة، فإنَّ الجرجاني قد عالج فيه الاستعارة بتوسع، مفرقا بينها وبين التشبيه البليغ. وفي حديثه عن الاستعارة يقول: "فأمَّا الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ، وتحسين النظم والنثر، وقد قدمنا عند ذكرنا البديع نبذًا منها مثلنا بها المستحسن والمستقبح، وفصلنا بين المقتصد والمفرط، وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها قريب من الاقتصاد، حتى استرسل فيها أبو تمام ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدي، وتبعه أكثر المحدثين بعده، فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة، والتقصير والإصابة. وأكثر هذا الصنف من الباب الذي قدمت لك القول فيه، وأقمت لك الشواهد عليه،

[١١٣] الآمدي، الحسن بن بشر. ١٩٧٥م. *كتاب الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري*. الناشر: دار المعارف مكتبة الخانجي. ص٥.

وأعلمتك أنَّه مما يميز بقبول النفس ونفوزها، وينتقد بسكون القلب ونبوه، وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه، واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه"[١١٤].

ولعلَّنا ندرك من هذا القول أنَّ مردَّ الحكم على جودة الاستعارة أو قبحها عند الجرجانى هو "قبول النفس أو نفورها" وأنَّ ذلك أكثر من الحجج الدالة عل جودة الاستعارة أو قبحها، فقد يجد الناقد حججا يستدل بها على قبح الاستعارة، ومع ذلك تنفر منها النفس، أو يجد حججًا يستدل بها على قبح الاستعارة، ومع ذلك تقبل عليها النفس.

ولا ريب أنَّه في ذلك يلتقي مع الآمدي في أنَّ الحكم على جودة الاستعارة أو رداءتها يرجع أكثر ما يرجع إلى الذوق الذي هو وليد المران والدربة وإطالة النظر والتأمل في أقوال الشعراء المجيدين[١١٥].

كتاب العمدة:

وفي القرن الخامس الهجري نلتقي بأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني "٤٥٦هـ" في كتابه "العمدة" الذي يعدُّ أيضا من الدراسات النقدية على أسس بلاغية.

ويحدِّثنا ابن رشيق في مقدمة كتابة العمدة عن الدافع الذي حفزه على تصنيفه فيقول: "....فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر خطوط الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته، وتتمثل إرادته، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ من الشعر لحُكْمًا" وروي "الحكمة"، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نعم ما تعلمنه العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته، فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم"، مع ما للشعر من عظم المزية، وشرف الأبية، وعز الأنفة، وسلطان القدرة[١١٦].

---

[١١٤] الجرجاني، علي بن عبد العزيز. ١٩٦٦م. *الوساطة بين المتنبي وخصومه*. الناشر: عيسى البابي الحلبي. ص٣١٩.

[١١٥] الجرجاني، علي بن عبد العزيز. ١٩٦٦م. *الوساطة بين المتنبي وخصومه*. الناشر: عيسى البابي الحلبي. ص٣٢٠.

[١١٦] القيرواني، أبو علي الحسن. ٢٠٠٩م. *العمدة في محاسن الشعر، وآدبه، ونقده*. مكتبة الساعي للناشر والتوزيع. ص١٦.

"وجدت الناس مختلفين فيه، متخلفين عن كثير منه: يقدمون ويؤخرون، ويقلون ويكثرون، قد بوَّبوه أبوابًا مبهمة، ولقبوة ألقابا متهمة، وكل واحد منهمم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه، ليكون "العمدة في محاسن الشعر وآدابه" "إن شاء الله تعالى".

"وعولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري خوف التكرار ورجاء الاختصار، إلاَّ ما تعلق بالخبر، وضبطته الرواية، فإنَّه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه ليؤتى بالأمر على وجهه". فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه، فهو من ذلك، إلاَّ أن يكون متداولا بين العلماء لا يختص به واحد منهم دون الآخر، وربما نحلته أحد العرب، وبعض أهل الأدب، تسترا بينهم، ووقوعا دونهم، بعد أن قرنت كل شكل بشكله ورددت كل فرع إلى أصله، وبينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشف عنه لَبْس الارتباب به، حتى أعرف باطله من حقه وأميز كذبه من صدقة"[١١٧].

تلك نبذة من مقدمة كتاب "العمدة في محاسن الشعراء وآدابه" توضح غرض ابن رشيق من وراء تصنيفه، والمنهاج الذي رسمه لنفسه في إخراجه، مع بيان مقدار ما له وما لغيره فيه.

وما دمنا نتحدث عن نشأة علم البيان والجهود التي أسهمت في تطويره من ملاحظات بيانية متناثرة هنا وهناك إلى علم بلاغي قائم بذاته، فإنَّ موضع اهتمامنا من كتاب العمدة معلَّق بالأبواب التي عرض فيها، بشيء من التفصيل لفنون علم البيان، من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية، حقا إنَّه جمع تحت كل باب من هذه الأبواب أقوال السابقين فيه وعرضها عرضًا حسنًا ييسرها للطالبين، وليس هذا الجهد

[١١٧] القيرواني، أبو علي الحسن. ٢٠٠٩م. *العمدة في محاسن الشعر، وآدبه، ونقده*. مكتبة الساعي للناشر والتوزيع. ص١٦.

في حد ذاته بقليل، ولكن من الحق أيضًا إنَّ له إضافات جديدة في هذه الأبواب تدل على غزارة علمة، ودقَّة فهمه، وسلامة ذوقه الأدبي[١١٨].

كتاب الصناعتين:

ومن كتب الدراسات النقدية التي قامت على أسس بلاغية، وإن كانت أكثر تخصصا من سابقتها كتاب "الصناعتين – الكتابة والشعر" لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة.

فأبو هلال في كتاب الصناعتين يدرس البلاغة دراسة دقيقة هي مزيج من علمه الخاص بها وعلم من سبقوه إليها، مع الإكثار من الأمثلة والشواهد.

وهو يعنى بالصناعتين الكتابة والشعر، فالكتاب ينبئ من عنوانه عن موضوعه الذي يبحث بحثا مستفيضا في أصول هاتين الصناعتين وأدواتها التي تتضافر على صنع الكاتب والشاعر[١١٩].

والكتاب يشمل عشرة أبواب: بابا في الإبانة عن موضوع البلاغة وحدودها، وبابا في تمييز جيد الكلام من رديئه، وبابا في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ، وبابا في البيان عن حسن النظم وجودة الرصف، وبابا في ذكر الإيجاز والإطناب، وبابا في حسن الأخذ وحل المنظوم، وبابا في التشبيه، وبابا في ذكر الإسجاع والازدواج، وباب في شرح البديع، وبابا في ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه. ويندرج تحت كل باب من هذه الأبواب فصول تتراوح من فصل إلى خمسة وثلاثين فصلا[١٢٠].

---

[١١٨] الجرجاني، علي بن عبد العزيز. ١٩٦٦م. *الوساطة بين المتنبي وخصومه*. المرجع السابق. ٣٢١.

[١١٩] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م.*كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٥.

[١٢٠] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م.*كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٥.

وفي الباب الأول بالذي عقده أبو هلال للإبانة عن وضوع البلاغة وحدودها ينوّه بشأن البلاغة، ويقرر أنَّ العلم بها ضروري لمعرفة إعجاز القرآن الكريم، ولتربية الذوق الأدبي، والتمييز بين جيّد الكلام ورديئه[١٢١].

وأبو هلال لا يخفى تأثره بالجاحظ وإعجابه بكتابه البيان والتبيين، واقتباسه الكثير منه، ولكنه مع ذلك يشير إلى ما يأخذه على منهجه التأليفي بقوله: "إنَّ الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلاَّ بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه"[١٢٢].

فهذا المأخذ على منهاج الجاحظ التأليفي ورغبته في تلاقيه وعلاجه كان أحد الأسباب التي دفعت أبا هلال على تأليف كتاب الصناعتين، أمَّا الأسباب الأخرى فهي معرفته بقيمة علم صناعة الكلام، وشعوره بشدَّة الحاجة إليه، وتخبط العلماء وتخليطهم فما راموا منه، ثم قلَّة الكتب المصنفة فيه، والتي كان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

وقد صرَّح بأنَّه لم يؤلف كتابه على طريقة المتكلمين، وإنَّما ألَّفه على طريقة صنَّاع الكلام من الشعراء والكتاب[١٢٣].

---

[١٢١] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٥.

[١٢٢] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٦.

[١٢٣] المرجع نفسه. وصفحة نفسها.

والمتصفح لكتاب الصناعتين يرى أنَّ المؤلف قد ألمَّ فيه تقريبًا بكل مباحث علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ولكن مباحث كل علم لا تأتي في موضع معين من الكتاب، وإنَّما تأتي في ثناياه وتضاعيفه على حسب مقتضيات المنهاج الذي رسمه أبو هلال لنفسه في تأليفه[١٢٤].

ولما كنا نعرض هنا بإيجاز لتاريخ البيان وتطوره حتى صار علمًا قائمًا بذاته، فإنَّ ما يعنينا من كتاب الصناعتين هو معرفة ما ورد فيه من موضوعات علم البيان وطريقة المؤلف في معالجتها، وهذه الموضوعات هي التشبيه، والاستعارة، والكناية[١٢٥].

وقد عقد أبو هلال للتشبيه في كتابه بابا من فصلين، تحدَّث في أولهما عن حد التشبيه، ووجوه التشبيه المختلفة، وأدوات التشبيه، والطريقة المسلوكة في التشبيه، وإخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها، وإخراج ما لا قوَّة له إلى ما له قوة، وتشبيه ما يرى بالعيان بما ينال بالفكر، وغريب التشبيه وبديعه ومليحه، وشرف التشبيه وموقعة من البلاغة[١٢٦].

وفي الفصل الثاني تحدَّث عن قبح التشبيه وعيونه، مثل خطأ التشبيه، والتشبيه الكرية، والتشبيه الردئ، اللفظ، وبعيد التشبيه، والتشبيه المتنافر.

أمَّا الاستعارة فعقد لها فصلا تكلَّم فيه عن: الاستعارة والمجاز، والغرض من الاستعارة، والاستعارة المصيبة ووقعها، وفضل الاستعارة على الحقيقة، ولا بدَّ لكل استعارة ومجاز من حقيقة، ولا بدَّ من معنى

---

[١٢٤] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٢٣٨.

[١٢٥] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٢٣٩

[١٢٦] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر* . صيدا: بيروت لبنان. ص٢٤٢.

مشترك بين المستعار والمستعار منه، والاستعارة أبلغ من الحقيقة والاستعارة في أشعار المتقدمين، وفي كلام المحدثين[١٢٧].

وقد عدّ أبو هلال الكناية ضمن فنون البديع، وعقد لها عرَّفها فيه وذكر نماذج م الجيد والمعيد منها، مع أنها من مباحث علم البيان، وليس المهم إلى أي علوم البلاغة ق نسبها، وإنَّما المهم أنَّه أتي على ذكرها في كتابه.

وطريقته في معالجة هذه الموضوعات البيانية ليست طريقة عالم البلاغة المعنى بدقائقها وتفاصيلها، وإنما هي طريقة من يمزج البلاغة بالأدب والنقد، وإذا القارئ أمام مزيج ترتاح إليه نفسه، ويستدرجه إلى الاسترحال في تحصيله طلبًا للمزيد من المتعة العقلية والأدبية[١٢٨].

وبعد فلعلنا أدركنا من ثنايا عرضنا التاريخي للبيان منذ نشأة البحث فيه حتى الآن كيف تطور على مرّ العصور، وكيف تضافرت جهود الباحثين فيه تدريجيًا على كشف أصوله من تشبيه وحقيقة ومجاز واستعارة وكناية، وكيف أخذت معالم هذه الأصول تتضح وتتلاحق واحدة بعد الأخرى.

وقد ظلَّ الأمر كذلك حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري فاقتطف ثمار هذه الجهود واتَّخذ منها مادة استعان بها في وضع نظرية علم البيان[١٢٩].

---

[١٢٧] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر*. صيدا: بيروت لبنان. ص٢٥١.

[١٢٨] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر*. المرجع السابق. ص٢٥٣.

[١٢٩] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ٢٠١٣م. *كتاب الصناعين الكتابة والشعر*. المرجع السابق. ٢٥٤.

عبد القاهر الجرجاني:

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى الإمام النحوى واحد علماء الكلام على مذهب الأشاعرة. ولد وعاش بجرجان ولم يفارقها حتى توفى سنة ٤٧١ للهجرة، وله مؤلفات قيمة في النحو والصرف والعروض، وإعجاز القرآن، والتفسير، والبلاغة، ولكنه اشتهر أكثر ما اشتهر بكتابه "أسرار البلاغة" الذي وضع فيه نظرية علم البيان، وكتابه "دلائل الإعجاز" الذي نظرية علم المعاني.

وهو لهذا يعدُّ بحق واضع أسس البلاغة العربية والمشيد لأركانها، والموضح لمشكلاتها، وأتموا البنيان الذي وضع أسسه[١٣٠].

ومن العجيب أنَّ الضعف بدأ يدب إلى اللغة في القرن الخامس وهي في أوج نهضتها. وكان أوَّل مرض ألمَّ بها في هذا العصر هو الوقوف عند ظواهر قوانين النحو، ومدلول الألفاظ المفردة والجمل المركبة، والانصراف عن معاني الأساليب، وعدم الاهتمام بمناحي القول، وضروب التجوز والكناية فيه.

وكان ذلك ما أشفق منه عبد القاهر على اللغة، فعكف على تأليف "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" اللذين دوَّن فيها علم البلاغة، ووضع قوانين البيان والمعاني، كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ في الإعراب. ومن مقدمة كتاب "أسرار البلاغة" يشعر القارئ أنَّ مدرسة الألفاظ كانت قد تحكمت في عصره وغطَّت على مدرسة المعاني، ومن أجل ذلك حاول هو بكتابه تأتي المعاني وبيان أثرها ودورها في بلاغة القول[١٣١].

وعلى هذا فالذى يهم الباحث من كتبه فيما نحن بسبيله هنا هو كتاب "أسرار البلاغة" الذي وضع فيه نظرية علم البيان بقواعده وشعبه وتفريعاته الكثيرة. والحق يقال إنَّه فريي في بابه، فهو بحث في

---

[١٣٠] الجرجاني، الإمام أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد. ١٩٩٢م. *دلائل الإعجاز*. ط٣. الناشر: دار المدني بجدة. ص ٣٢٠.

[١٣١] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

البيان العربي غير مسبوق ولا ملحوق، وإنَّه ليدل فيما أرى على ألمعية صاحبه، وغزارة علمه، وسلامة ذوقه، وعقليته الجبارة المبتكرة[١٣٢].

و"أسرار البلاغة" باستثناء ما ورد فيها عن الجناس، والسجع، والاتفاق في الأخذ والسرقة عند الشعراء، هو بحث أصيل عميق في أصول علم البيان من حقيقة ومجاز، واستعارة، وتشبيه. إذا كان لم يتكلم فيه الكناية، فإنَّه قد استوفى الكلام عنها في كتابه الآخر "دلائل الإعجاز" كما عرض فيه أيضًا لبعض جوانب من الاستعارة، وللمجاز الحكمي "العقلي" الذي اهتدى إليه بذوقه الكلامي وعدَّه ضربا جديدًا من المجاز[١٣٣].

وعبد القاهر ينظر إلى المجاز من الاستعارة والتشبيه والكناية على أنَّها عمد الإعجاز وأركانه، والأقطاب التي تدور البلاغة عليها، وعنها يقول: "ولم يتعاط أحد من الناس بالقول في الإعجاز إلا ذكرها، وجعلها العمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية، وخصوصا الاستعارة والمجاز، فإنَّك تراهم يجعلونها عنوان ما يذكرون، وأوَّل ما يوردون".

وليس من غرضنا هنا التوسع بعرض مجمل آراء عبد القاهر في مباحث علم البيان فهذا أمر يطول شرحه، وإن كنَّا سنعرض فيما بعد لبعض آرائه عند دراستنا التفصيلية لفنون البيان من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية[١٣٤].

---

[١٣٢] الجرجاني، الإمام أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد. ١٩٩٢م. *دلائل الإعجاز*. ط٣. الناشر: دار المدني بجدة. ص ٣٥٤.

[١٣٣] الجرجاني، الإمام أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد. ١٩٩٢م. *دلائل الإعجاز*. ط٣. الناشر: دار المدني بجدة. ص ٣٥٦.

[١٣٤] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

إنَّما الغرض الآن أن نبين المنهاج الذي رسمه في البحث والذي يكاد يكون أوَّل منهاج علمي منظم في البلاغة، ثمَّ نشفع ذلك بذكر الجواب التي تطرق لبحثها في كل موضوع، الأمر يدل على سعة علمه وتفوقه على غيره، وأخيرا نشير بإيجاز إلى طريقته في التأليف.

أمَّا عن مناهجه في البحث فاستمع إليه يعرضه في كلماته: "واعلم أنَّ الذي يوجبه ظاهر الأمر، وما يسبق إليه الفكر أن نبدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز، ونُتبَع ذلك القول في التشبيه والتمثيل، ثمَّ نسق ذكر الاستعارة عليهما، ونأتي بها في أثرهما، وذلك أنَّ المجاز أعم من الاستعارة، والواجب في قضايا المراتب: أن نبدأ بالعام قبل الخاص. والتشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره. إلاَ أنَّ ههنا أمورًا اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة، وبيان صدر منها، والتنبيه على طريق الانقسام فيها، حتى إذا عُرِّف بعض ما يكشف عن حالها، ويقف على سعة مجالها، عُطِف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين، فوُفِّي حقوقهما، وبُيِّن فروقهما، ثمَ ننصرف إلى استقصاء القول في الاستعارة"[١٣٥].

ذلك هو المنهج الذي أخذ به نفسه، وجمع فيه لأوَّل مرة مباحث علم البيان بعضها إلى بعض، ورتَّبها من حيث الكلام عنها ترتيبًا منطقيًا منظمًا، يبدأ فيه بالعام قبل الخاص، وبالأصل يتلوه الفرع، مع العناية بتوضيح ما بين التشبيه والتمثيل من فروق، وباستقضاء القول في الاستعارة.

أمَّا الجوانب التي تطوق لبحثها في كل مبحث علم البيان فلا سبيل هنا إلى سردها جملة لكثرتها، ولكنا نكتفي بذكر طائفة منها لبيان أهميتها والدلالة بها على عقلية عبد القاهر التي تنحو منحى الإبتكار والإبداع[١٣٦].

---

[١٣٥] الجرجاني، الإمام أبي بكر عبد القاهر. ١٩٩١م. *أسرار البلاغة*. ط١. مطبعة المدني. ص٢١-٢٢.

[١٣٦] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٢٤-٢٥.

١- الحقيقة والمجاز: حدُّ كلّ منهما، المجاز العقلي واللغوي والفرق بينهما، معنى المجاز وحقيقته، وكونه أعم من الاستعارة، ومكان الاستعارة منه، تقسيم المجاز إلى لغوي وعقلي، واللغوي إلى الاستعارة، والمجاز المرسل، كون المجاز العقلي في الجمل لا المفردات، الحذف والزيادة، وهل هما من المجاز أم لا.

٢- التشبيه: التشبيه وأقسامه، وجوه الشبه المنتزعة من شيء أو أشياء، التشبيه المتوقف على دقَّة الفكر، التفصيل لدقائق التشبيه المركب، التشبيه في الهيئة التي تقع عليها الحركات، الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه، قلب التشبيه، القلب أو العكس في طرق التشبيه، القياس في التشبيه، تشبيه الحقيقة والمجاز، جعل الفرع أصلًا في التشبيه وعكسه، تأثير اختلاف الجنس بين المشبه والمشبه به[١٣٧].

٣- التمثيل: الفرق بين التشبيه والتمثيل: التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل، وليس كل تشبيه تمثيلًا، وجوه الشبه في جمل من التمثيل، التمثيل في المدح والذم الحجاج والافتخار والاعتذار والوعظ، الفرق بين تأثر الكلام وعدمه، أسباب قوَّة تأثير التمثيل وعلله النفسية بسبب تأثير التمثيل في ضريبه، تعليل في فلسفة التمثيل، جعل التمثيل الشيء كضده أو عدمه، مآخذ التمثيل من الموجودات، الفرق بين التمثيل الدقيق والتعقيد.

٤- الاستعارة: حدها، أقسامها، الاستعارة المفيدة وأقسامها، الاستعارة المختلفة الجنس والأنواع، الاستعارة القريبة من الحقيقة، التفرقة بين نوعي الاستعارة في الجنس، وجه الشبه العقلي في الاستعارة، الاستعارة والمبالغة في التشبيه، وقوع الاسم مستعارا بحسب الحس وهو ليس كذلك، بيان أنَّ الاستعارة ليست من التخليل، بناء الاستعارة والتخليل على تناسي التشبيه، الفرق بين التشبيه والاستعارة[١٣٨].

---

[١٣٧] الجرجاني، الإمام أبي بكر عبد القاهر. ١٩٩١م. *أسرار البلاغة*. ط١. مطبعة المدني. ص١٣٠

[١٣٨] الجرجاني، الإمام أبي بكر عبد القاهر. ١٩٩١م. *أسرار البلاغة*. ط١. المرجع السابق. ص١٣٠

ومن جوانب الاستعارة الأخرى التي ذكرها في كتابه دلائل الإعجاز: شرح معنى الاستعارة، الاستعارة التمثيلية، فضل الاستعارة والتمثيل، أمثلة من بديع الاستعارات، المستعار هو معنى اللفظ لا اللفظ له، لا يعار اللفظ إلاَّ بعد أن يعار المعنى.

٥- الكناية: تكلَّم عبد القاهر في كتابه "دلائل الإعجاز" عن الجوانب التالية من الكناية: الكناية والاستعارة، السبب في قبح الكناية، شعب الكناية وصورها ليس لها حد ولا غاية، في الكناية إثبات يصحبه البرهان، الاستعارة والكناية والمجاز من عمد البلاغة وأركانها[١٣٩].

أمَّا الطريقة التي سار عليها عبد القاهر في تأليف كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" وامتاز بها على كتب البيان الأخرى فهي طريقة تجمع بين العلم والعمل الذي يثبت به العلم.

أما العلم فيتمثل في القواعد الكلية، وأمَّا العمل فيتمثل في الأمثلة والشواهد. فإذا كانت القاعدة الكلية هي صورة إجمالية للمعلومات الجزئية، فإنَ الأمثلة والشواهد صور تفصيلية لها.

تلك هي طريقة عبد القاهر: يذكر القاعدة الكلية ثمَّ يردفها بالأمثلة والشواهد والتى تفصّلها وتوضحها، إدراكا منه بأنَّ التعليم النافع إنما يكون بقرن الفنون المفصلة بالصور المجملة، إذ بالتفضيل تعرف المسائل، وبالإجمال تحفظ في العقل[١٤٠].

وبهذه الطريقة امتاز كتاباه على كتب البلاغة الأخرى التي اقتصرت عل سرد القواعد بعبارات اصطلاحية تأباها بلاغة الأساليب العربية، والتي لا تذكر من الشواهد والأمثلة إلاَّ القليل النادر الذي أدلى به السابق إلى اللاحق.

---

[١٣٩] الجرجاني. الإمام أبي بكر عبد القاهر. ٢٠٠٠م. *دلائل الإعجاز في علم المعاني*. ط١.بيروت: المكتبة العصرية. ص٤٥-٤٩.

[١٤٠] الجرجاني. الإمام عبد القاهر. ٢٠٠٠م. *دلائل الإعجاز في علم المعاني*. المرجع السابق. ص٣٣٠-٣٨٠.

الزمخشري:

ثمَ ظهر بعد عبد القاهر الجرجاني عالم آخر كان له أثر كبير في ميدان البلاغة العربية ونهضتها. ذلك هو العالم المعتزلي جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة، والذي ضرب بسهم وافر في علوم العربية والتفسير، وله فيها المؤلفات القيمة التي تشهد بفظنته وسعة علمه.

ومن مؤلفاته التي وصلت إلينا "المفصل" في علم النحو، و"مقامات الزمخشري" في التصوف، و"أساس البلاغة" وهو معجم لغوي يورد فيه المعاني اللغوية للكلمة، موضحًا إياها في عبارات، ومردفًا ذلك بمعانيها المجازية، ولكن أهم كتاب اشتهر به منذ عصره هو "الكشاف" الذي قدَّم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، وأشاد به حتى أهل السنة على الرغم من اعتزال مؤلفه[١٤١].

واهتمام المعتزلة بتفسير الإعجاز بتفسير الإعجاز البلاغي للقرآن اهتمام قديم، فقد كتب فيه من رجالهم الجاحظ والرماني وعبد الجبار المعتزلي ثمَّ الزمخشري الذي أقبل بشغف على الدراسات البلاغية ولا سيما كتابات عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"[١٤٢].

أجل لقد تتلمذ على عبد القاهر في هذين الكتابين وعمق في فهمهما واستيعابهما إلى الحد الذي جعله يؤمن بأنَّ المعرفة بالبلاغة وأساليبها لا تكشف فقط عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن، بل تكشف أيضًا عن خفايا معانيه وأسرارها.

وفي مقدمة "الكشاف" يقرر أنَّ تفسير القرآن لا يكفي فيه أن يكون المفسر من أئمة الفقه، أو النحو، أو اللغة، أو علم الكلام، أو القصص والإخبار. وإنما ينبغي فيمن يتصدى له أن يكون بارعًا في علمين مختصين بالفرآن هما: علم المعاني، وعلم البيان، وهذان في نظره، أهم عدَّة لمن يريد أن يفسر

---

[١٤١] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١١.

[١٤٢] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٢.

القرآن، إذ بدونهما لا تستقيم له الدلالات، ولا تتضح له الإشارات، ولا لطائف ما في الذكر الحكيم من الجمال المعجز الذي عنت له وجوه العرب وخروا له ساجدين[١٤٣].

إذن فالتفسير عنده ليس قاصرًا على معرفة معاني القرآن فحسب، وإنَّما هو أيضًا بيان لأسرار إعجازه، بل إنَّ معرفة معانيه لا تتم إلاَ لمن تمت له آلة البلاغة، وعرف وجوه الأساليب وخصائها المعنوية، وأدرك الأسباب المعينة على تمييز صور الكلام البيانية[١٤٤].

والذي يدرس بإمعان تفسير "الكشاف" يخرج منه بحقيقتين: إحداهما أنَّه استوعب كل ما كتبه عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" قبل أن يشرع ي تفسيره. والحقيقة الثانية أنَّ "الكشاف" هو في الواقع خير تطبيق على كل ما اهتدى إليه عبد القاهر من قواعد المعاني والبيان، فقد اتخذ الزمخشري من آي الذكر الحكيم أمثلة وشواهد يوضح بها كل قواعد عبد القاهر البلاغية، سواء ما اتصل منها بعلم المعاني أم علم البيان[١٤٥].

ولم تقف جهود الزمخشري في البلاغة عند حد تطبيق آراء عبد القاهر في تفسيره تطبيقًا مستقضيًا، ولكنه وصل هذا التطبيق بكثير من آرائه التي تدل على تعمقة، وفطنته في تصوير الدلالة البلاغية، وإحاطته بخواص العبارات والأساليب.

ولو أنَّه اكتفى بذلك لكان حسبه إسهاما في تطوير علمي المعاني والبيان، ولكنا نراه يضيف إلى مباحث هذين العلمين ما عن له من آراء، ويستكمل كثيرا من شعبها ودقائقها ومقاييسها[١٤٦].

---

[١٤٣] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٠

[١٤٤] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٤٥] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٢٨-٢٩.

[١٤٦] المرجع نفسه.ص.٢٩.

ولما كان هذا البحث هو في المحل الأول عن علم البيان، فإنَّ الجديد الذي أضافه الزمخشري إلى مباحثه كثير. وتتمثل إضافاته إليه في استكمال صور الكناية والاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلى، وإحكام وضع قواعدها إحكامًا دقيقًا. وإذا كان عبد القاهر هو مؤسس علم المعاني وعلم البيان، وهو من استنبط من جزئيات كلا العلمين أكثر قواعده فإن الزمخشري هو الذي أكمل قواعدها، وهي وإن جاءت مفرقة في تضاعيف تفسيره، فإنها دائما مقرونة بأمثلة من القرآن الكريم توضحها وتكشف عن دقائقها[١٤٧].

وهكذا بمنهاج عبد القاهر الذي أجملت أهم عناصره آنفا، وبطريقته التعليمية الواضحة، وكذلك بتطبيق الزمخشري لآراء عبد القاهر في تفسيره "الكشاف" وبالإضافات الجديدة التي استكمل بها قواعده – أقول بكل ذلك استطاع الرجلان أن يضعا ويكملا قواعد علم المعاني وعلم البيان، وكل ما هناك أنه بقي من يستقصي هذه القواعد عندهما وينظمها في كتاب يجمع متفرقها ويضم منثورها.

وكان ذلك العمل على يد السكاكي الذي دخلت البلاغة به في طور الجمود كما سنرى[١٤٨].

السكاكي:

هو يوسف أبو يعقوب بن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة، احترف صناعة المعادن حتى الثلاثين من عمره، ثمَّ خطر له أن يخلص للعلم فتفرَّغ له وأكبَّ على دراسة الفلسفة والمنطق والاعتزال والفقه وأصوله، وعلوم اللغة والبلاغة حتى أتقنها.

وللسكاكي مؤلفات مختلفة، منها كتاب "مفتاح العلوم" الذي يعدُّ أهم كتبه، وقد قسَّمه ثلاثة أقسام رئيسية، خص الأول منها بعلم الصرف والاشتقاق بأنواعه، والثاني بعلم النحو، وخص القسم

---

[١٤٧] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٢٩.

[١٤٨] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٢٩-٣٠.

الثالث بعلم المعاني وعلم البيان والحق بهما مبحثا عن البلاغة والفصاحة، وآخر عن المحسنات البديعية اللفظية منها والمعنوية[١٤٩].

وشهرة السكاكي العلمية ترجع في الواقع إلى هذا القسم من كتابه الذي أعطى فيه للمعاني والبيان والبلاغة والبديع الصيغة النهاية التي عكف عليها العلماء من بعده يدرسونها ويشرحونها مرارا وتكرار. وما أعطاه لعلوم البلاغة ليس ابتكارا خالصا له، وإنَّما هو تلخيص دقيق يجمع بين أفكاره الخاصة وأفكار البلاغيين من قبله.

وقد صاغ ذلك كله صياغة مضبوطة محكمة بقدرته المنطقية في التعليل والتجريد والتعريف والتقسيم والتفريع والتشعيب. وأهم الكتب التي اعتمد عليها في النهوض بهذا العمل كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجار" للفخر الرازي وكتابا "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، وكتاب "الكشاف" للزمخشري[١٥٠].

وقد سبقه الفخر الرازي إلى تلخيص كتابي عبد القاهر، ولكن تلخيص السكاكي أدق وأشمل. والمقارنة بين تلخيص تظهر أنَّ السكاكي كان أكثر ضبطًا وتنظيمًا للمسائل، مع ترتيب المقدمات وإحكام القياس.

ومع ذلك فقد خلا تلخيصه من تحليلات عبد القاهر والزمخشري التي تبهر القارئ، وتحولت البلاغة في تلخيصه إلى علم طغت فيه القواعد والقوانين على روح البيان ومضاته التي تتمتع النفس، وهو في سبيل استنباط القواعد والقوانين قد استخدم المنطق بأصوله وألفاظه وأسلوبه الجاف الذي لا يحوي

---

[١٤٩] الجرجاني، الإمام أبو بكر عبد الرحمن محمد. ٢٠٠٩م. *أسرار البلاغة*. صيد- بيروت: لبنان. ص٦.

[١٥٠] لجرجاني، الإمام أبو بكر عبد الرحمن محمد. ٢٠٠٩م. *أسرار البلاغة*. المرجع السابق. ص٧.

أي جمال. ولا عجب في ذلك فقد كان همه أن يقنّن البلاغة ويقعّدها كسائر العلوم الأخرى، وهذا أمر يستعان عليه بالمنطق[١٥١].

وما يعنينا هنا هو كلام السكاكي عن علم البيان، وقد عرفه بقوله: "إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه". وفي مقدمة تلخيصه لقضايا علم البيان تعرض للكلام عن الدلالات وكان في كلامه عنها متأثرا برأي الفخر الرازي فيها، وقد قسمها إلى الدلالة الوضعية للألفاظ والدلالة العقلية أو الالتزامية، وعن الدلالة الأولى يقول إنَّه لا يجوز إرجاع الفصاحة والبلاغة إلى الدلالة اللفظية، وغير أنَّه قد يلابسها ما يفيد الكلام جمالًا وزينة.

أمَّا الدلالة العقلية أو الالتزامية فهي التي تجري في الفنون البيانية وهي تختلف عن الدلالة الوضعية[١٥٢].

وهذه الدلالة العقلية أو الالتزامية إمَّا أن تكون من باب دلالة اللازم على على الملزوم كدلالة كثرة الرماد على الكرم في الكناية، وإما من باب دلالة الملزوم على اللازم، أي دلالة المسبب على السبب كقوله تعالى: { وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}[١٥٣] فالرزق لا ينزل من السماء ولكن الذي ينزل مطر ينشأ عنه النبات الذي منه طعامنا ورزقنا، فالرزق هو المسبب أو الملزوم الذي دلَّ على السبب أو اللازم، وذلك على نحو ما هو معروف في المجاز المرسل[١٥٤].

---

[١٥١] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٢

[١٥٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٠-٣١.

[١٥٣] القرآن ٤٠. الآية١٣.

[١٥٤] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٣.

ثم يخلص من هذه المقدمة التي يغلب عليها أسلوب المنطق إلى أن علم البيان يتناول التشبيه والمجاز والكناية. ومباحث التشبيه عند السكاكي تتناول أربعة موضوعات هي: طرفاه، ووجهه، والغرض منه، وأحواله في القرب والغرابة، والقبول والرفض[١٥٥].

فطرفا التشبيه إما أن يدركا بالحس كتشبيه الوجه بالقمر، وإما أن يدركها بالخيال كتشبيه شقائق النعمان على أغصانها بأعلام ياقوت على رماح من زبرجد. فالتشبيه الخيالي هو المعدوم الذي فرض مجتمعًا من أمور كل واحد منها يدرك بالحس، فإنَّ الأعلام الياقوتية المنشورة على الرماح الزبرجدية مما لا يدرك بالحس، لأنه لا وجود لها في عالم الواقع، ولكن المادة التي تركب منها التشبيه، أي الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد كل منها محسوس بالبصر. إما أن يدرك طرفي التشبيه بالوهم كما إذ قدرنا صورة وهمية للموت وشبهناها بالمخلب أو الناب، وإما أن يدركا بالعقل كتشبيه العلم بالحياة، وإما أن يدركا بالوجدان كاللذة والألم والشبع والجوع. وهذه تقسيمات واستحدثها السكاكي متأثرا بكلام الفلاسفة وعلماء الكلام في صور الإدراك[١٥٦].

وأقسام وجه الشبه عند السكاكي كثيرة: فوجه الشبه عنده إمَّا أن يكون واحدا أو غير واحد، وغير الواحد إما أن يكون في حكم الواحد لكونه هيئة مركبة أو لا يكون. والواحد إما أن يكون حسيًا أو وعقليًا، ولا بد في الحسي من أن يكون طرفاه حسين. أما وجه الشبه العقلى فيجرى في جميع صور التشبيه، فقد يكون طرفاه حسين، كتشبيه الشجاع بالأسد في الجراءة، وقد يكون طرفاه عقليين كتشبيه الجهل بالموت في عدم النفع، وقد يكون أحدهما حسيا والآخر عقليًا كتشبيه العلم بالنور في النفع والفائدة.

---

[١٥٥] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٥٦] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٢-٣٣.

وهكذا يمضي السكاكي في تقسيم وجه الشبه أقسامًا أخرى قد نعرض لها عند الكلام عن التشبيه تفصيليًا[١٥٧].

ثمَّ يتحدَّث السكاكي عن أغراض التشبيه ويقسمها إلى ما يعود إلى المشبه أو إلى المشبه به. ويقسم الأول إلى بيان حال، وبيان مقدار حال، وبيان إمكان حال، وزيادة تقرير حال، وتزيين وتقبيح واستطراف.

أما الأغراض التي تعود إلى المشبه به فمرجعها إلى إيهام كونه أتم من المشبه في وجه الشبه، أو بيان أنَّه أهم عند مريد التشبيه.

ولا يفوته هنا أن يبدي رأيه في التشبيه التمثيلي مقررًا أنَّ وجه الشبه فيه ينبغي أن يكون مركبًا أي صورة متنزعة من متعدد وأن يكون وهميا اعتباريًا، وهو في ذلك يخالف عبد القاهر الذي يشترط أن يكون وجه الشبه في التشبيه التمثيلي مركبًا وأن يكون عقليًا، والعقلي عنده يشمل الوهمي[١٥٨].

وعن أحوال التشبيه من حيث القرب والغرابة، والقبول والرفض، يتسوحي السكاكي في ذاك رأي عبد القاهر فيقول: إن إدراك الشيء مجملا أسهل من إدراكه مفصلا، وإنَّ حضور ما يتردد على الحس أقرب من حضور ما لا يتردد عليه، وإن الشيء مع ما يناسبه أقرب حضورا منه ما لا يناسبه، وإن استحصار الأمر الواحد أيسر من استحضار غير الواحد، وإنَّ ميل النفس إلى الحسيات أتم من ميلها إلى العقليات، وإنَّ النفس لما تعرف أقبل منها لما لا تعرف، وإنَّ الجديد المستطرف عنجها ألذ من المعاد المكرر[١٥٩].

---

[١٥٧] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٥٨] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٤.

[١٥٩] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٤.

وعلى ضوء هذه الأصول يقول: إنَّ من أسباب قرب التشبيه أن يكون وجهه أمرا واحدا، أو يكون المشبه به قريبا في الصور من الشبه، أو يكون حاضرا في الخيال بجهة من الجهات.

أمَّا غرابته فمن أسبابها أن يكون وجه الشبه مركبا أو يكون الشبه به بعيد الشبه عن المشبه، أو يكون وهميا أو مركبا عقليا. أمَّا التشبيه المقبول فالأصل فيه أن يكون صحيحا، وألا يكون مبتذلا.

وكذلك يعرض السكاكي لصور التشبيه البليغ، ويتابع عبد القاهر في إدخال صور التجريد المختلفة في التشبيه كقولك عن صديق أنست بحديثه "وجدت في حديثه نسمه عطرة" فقد جردت من حديث الصديق نسمة متصفة بالعطر كأنَّها غيره، مع أن حديث الصديق هو هي. وكقول الشاعر:

أُعَانِقُ غُصْنَ الْبَانِ مِنْ لَينِ قَدُّهَا وَأَجْنِي جَنَى الْوَرْدِ مِنْ وَجْنَاتِهَا[١٦٠]

فالشاعر هنا جرّد من قدّ الحبيبة غصن بان لين، ومن وجنتها وردا. فهو بدل أن يعبر بالتشبيه الصريح فيقول: قد الحبيبة كغصن البان لينا، ووجناتها كالورد، عبَّر عنه بأسلوب التجريد الذي عدَّه السكاكي صورة من صور التشبيه[١٦١].

وأخيرا يختم السكاكي كلامه عن التشبيه ذاكرا أنَّه قد يشبه الضد بضده على سبيل التهكم، كتشبيه الجبان بالأسد، ة البخيل بحاتم مثلا.

بعد ذلك ينتقل السكاكي إلى الحديث عن المجاز ويجره ذلك أولا إلى تعريف الحقيقة بأنها: "الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع، واحترز بقوله: "من غير تأويل في الوضع" حتى لا تدخل الاستعارة[١٦٢].

---

[١٦٠] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٥.

[١٦١] المرجع نفسه ٣٤-٣٥.

[١٦٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٥-٣٦.

ثمَّ يخلص من ذلك إلى تعريف المجاز بأنَّه: "الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالًا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع".

ويحترز بقيد "التحقيق" من خروج الاستعارة، ويقيد "استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها" من استعمال الكلمة لغة أو شرعا أو عرفًا، وبقيد "مع قرينة مانعة عن إرادة معناها من الكناية.

ويفرق بين المجاز والمشترك اللغوي، بأنَّ المجاز يلاحظ فيه المعنى الأصلي، أمَّا المشترك فيدل على المعنيين معا، وبتخصص بالقرائن وهي دلالة وضعية[١٦٣].

ومن تعريف المجاز ينتقل إلى أقسامه، فيسمه قسمين أساسيين: مجازا لغويا في المفرد، ومجازا عقليا في الجملة، ثمَّ يفرع هذين القسمين أقساما أخرى منها المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه وهو المجاز المرسل ومنها المفيد المتضمن للمبالغة في التشبيه، وهو الاستعارة، وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالًا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به[١٦٤].

بعد ذلك يأخذ السكاكي في تقسيم الاستعارة إلى تصريحية وهي ما صرَّح فيه بلفظ المشبه، وإلى مكنية وهي ما ذكر فيها لفظ المشبه، ثمَّ يقسمها إلى أصلية أو تبعية، وإلى مرشحة أو مجردة[١٦٥].

ويعد الكلام مفصلًا عن كل نوع من أنواع الاستعارة، يعود إلى استيفاء بقية أنواع المجاز فيتكلم عن مجاز الحذف من مثل "وجاء ربك" أي أمر ربك، ومجاز الزيادة من مثل "ليس كمثله شيء" إذ زيدت الكاف في الآية، والمجاز العقلي، وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له علاقة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي، كقول المتنبي في وصف ملك الروم بعد هزيمة سيف الدولة له:

---

[١٦٣] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٣.

[١٦٤] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٦٥] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٦.

وَيَمْشِي بِهِ لِعُكَازِ فِي الدِّيَرِ تَائِبُ وَقَدْ كَانَ يَأْبِي مَشْيَ أَشْقَرُ أَجْرَدًا[١٦٦]

فالفعل "يمشي" هنا قد أسند إلى "العكاز" أي إلى غير فاعله، لأنَّ العكاز لا يمشي وإنَّما الذي يمشي هو صاحب العكاز، ولكن لما كان لعكاز سببًا في المشي جاز إسناد الفعل إليه.

وأخيرا ينتقل السكاكي إلى الكناية فيعرَّفها بأنَّها: ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك". ويلاحظ أنَّ المتروك قد يكون قريبًا طاهرًا، وقد يكون بعيدًا خفيًا ولهذا قال إنَّ الكتابة تتفاوت من تعريض إلى تلويح، ورمز، وإيحاء وإشارة[١٦٧].

ثم يعرض إلى التفريق بين الكناية والمجاز من وجهين: أحدهما أنَّ الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها، فالخنساء عندما ترثي أخاها صخرًا "بأنَّه كثير الرماد" كناية عن جوده وكرمه، فإنَّ هذه الكناية لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي بأنَّ أخاها صخرا كثير الرماد حقيقة ومن غير تأويل. أمَّا المجاز فيمنع من إرادة المعنى الحقيقي، فلا يجوز أن يكون المراد من قولك: "كلمت أسدًا" الأسد الحقيقي. والوجه الثاني أنَّ الكناية بنيت على الانتقال من اللازم إلى الملزوم على حين بني المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم[١٦٨].

ويقسم السكاكي الكناية بحسب المراد منها إلى ثلاثة أقسام: كناية عن صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن نسبة.

تلك خلاصة لما أورده السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" عن مباحث علم البيان التي أكثر فيها من التقسيمات والتفريعات، وخرج بها من جوهر البلاغة الواضحة السمحاء إلى ميدان المنطق العقد الجاف.

---

[١٦٦] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٦.

[١٦٧] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٧-٣٨.

[١٦٨] المرجع نفسه. ص٣٧.

وعلى طريق تتبعنا لنشأة علم البيان وتطوره نلتقي بعد السكاكي بطائفة من علماء البلاغة الذي انحرفوا في دراستها عن طريقة السكاكي، أو ساروا عليها تلخيصا لمجهوده فيها[١٦٩].

إبن الملك:

ومن أولئك العلماء بدر الدين بن مالك المتوفي ينة ٦٨٦ للهجرة وصاحب كتاب "المصباح في علوم المعاني والبيان والمعاني"، وكتابه هذا هو في الواقع تلخيص لكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، مع تجريده من تعقيداته المنطقية والكلامية والفلسفية، ولعل التغيير الوحيد الذي أحدثه هو نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل علم البيان إلى فاتحة مختصرة أو تلخيصه[١٧٠].

وقد جرى على رأي السكاكي في النظر إلى علمي المعاني والبيان على أنهما مرجع البلاغة، وإلى الفصاحة على أنها مرجع المحسنات البديعية، ومع اعترافه بأن هذه المحسنات توابع للمعاني والبيان فإنَّه جعلها علمًا مستقلًا سماه "علم البديع" وبذلك مهَّد لأن تصبح البلاغة العربية متضمنة ثلاثة علوم[١٧١].

التنوخي:

ومنهم التنوخي محمد بن عمرو المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة، وصاحب كتاب "الأقصى القريب في علم البيان". والتنوخي هذا ممن انحرفوا عن طريقة السكاكي والزمخشري وعبد القاهر الجرجاني في تقسيم البلاغة إلى علوم، لكل منها مباحثه الخاصة التي تميزه عن غيره. وقد نحا التنوخي في كتابه منحى ابن الأثير من حيث إطلاق اسم البيان على جميع مباحث البلاغة من غير فصل بينها.

---

[١٦٩] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٤.

[١٧٠] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٣٨.

[١٧١] المرجع نفسه. والصفحة نفسها.

أمَّا من حيث مباحث علم البيان التي عرض لها في كتابه فلم تتجاوز الاستعارة والتشبيه. وكلامه عن الاستعارة موجز يقف فيه عندما سماه السكاكي الاستعارة التصريحية، وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه، أمَّا الاستعارة المكنية والتي هي قسيم التصريحية فلم يتعرض لها في كتابه.

وقد أطال في سرد أمثلة التشبيه وبيان أنواعه، وبهذا نال من اهتمامه أكثر مما نالت منه الاستعارة[١٧٢].

إبن الأثير:

ومن أولئك العلماء أيضًا ضياء الدين بن الأثير المتوفى ٦٣٧ من الهجرة وصاحب كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر".

وهو ممن انحرفوا في دراسة البلاغة عن طريقة السكاكي والذي تتسع عنده كلمة "علم البيان" لتشمل كذلك مباحث المعاني والبديع.

وقد بنى ابن الأثير كتابه على مقدمة ومقالتين: المقدمة تعالج أصول علم البيان، المقالة الأولى في الصناعة اللفظية، والمقالة الثانية في الصناعة المعنوية[١٧٣].

وما يعنينا هنا من كتابه هو محاولة التعرف على الإسهامات العلمية التي أسهم بها في تطوير مباحث علم البيان، وهذه المباحث التي عالجها في كتابه وعدّها من الصناعة المعنوية هي: الاستعارة والمجاز والتشبيه والكناية والتعريض.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كلامه عن هذه المباحث ينقصه التنظيم والتبويب، فالحديث عن هذه الفنون البيانية يأتي عنده متداخلا على حسب ما تستدعيه طبيعة البحث. ومع هذا فإنَّ الدارس لمباحث علم

---

[١٧٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق.. ص ٣٩.

[١٧٣] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٤.

البيان في كتاب المثل السائر يخرج منه بصورة شامله واضحة لهذه المباحث البيانية، وبصورة أخرى لمنهاج ابن الأثير في البحث، هذا المنهاج الذي يجمع فيه بين علمه الدقيق بأصول البيان العربي وبين النقد والتحليل[١٧٤].

وإذا انتقلنا الآن إلى عرض كلامه في مباحث علم البيان فإننا نراه بدأ أوَّل ما بدأ بالاستعارة ممهدًا لها بحديث عن المجاز، فالاستعارة عنده من أوصاف الفصاحة والبلاغة العامة التي ترجع إلى المعنى، وهو ضرب من المجاز الذي هو قسمان: توسع في الكلام وتشبيه. ولا يكاد يذكر التشبيه حتى يستطرد إلى الكلام عنه فيقسمه تقسيمًا أوليًا إلى تشبيه تام وتشبيه محذوف مع تعريف كليهما وتوضيحه بالأمثلة[١٧٥].

ولا ينتهى من ذلك حتى يبدأ فيقسم التشبيه تقسيما سآخر، من حيث ذكر أداة التشبيه وحذفها، إلى تشبيه مظهر وتشبيه مضمر. وهنا يضطره البحث إلى التفريق بين التشبيه المضمر والاستعارة، فالتشبيه المضمر يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، أمَّا الاستعارة فلا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها، أي أنها لا تكون إلاَّ بحيث يطوي ذكر المستعار له[١٧٦].

فالتشبيه المضمر من مثل "زيد أسد" إذا أظهرت الأداة فيه وقيل: زيد كالأسد، حسن ظهورها، ولم تقدح في الكلام الذي أظهرت فيه، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة. وهذا بخلاف الاستعارة فإنَّه لا يحسن فيها ظهور أداة التشبيه، ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفًا به من جنس فصاحة وبلاغة. فقول الشاعر:

وَمْطَرَتْ لُؤلَؤًا مَنْ تَرْجِسٍ وَسَقَتْ وِرْدًا، وَعَضَّتْ عَلَى العِنَّابِ بِالْبَرْدِ[١٧٧]

---

[١٧٤] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٥.

[١٧٥] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٠.

[١٧٦] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٧٧] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق ١١٨.

عليه من والحسن والرونق ما لاخفاء به، وهو من باب الاستعارة. فإذا أظهرنا المستعار له والأداة صرنا إلى كلام غث، وذاك أنا نقول: فأمطرت دمعا كاللؤلؤ، من عينين كالنرجس، وسقت خدا كالورد، وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب، بأسنان كالبرد[١٧٨].

وينتقل من ذلك إلى ذكر سبب تسمية الاستعارة، وبيان حقيقتها وميزتها على التشبيه المضمر.

ثم يعود إلى التشبيه استيفاء للكلام عنه، فيقسم المضمر منه خمسة أقسام من حيث تقدير أداة التشبيه. فإذا ما فرغ من ذلك نراه يشير إلى تفرقه علماء البيان بين التشبيه والتمثيل، مع أنهما في رأيه شيء واحد، لا فرق بينهما في أصل الوضع، إذ يقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال مثلته به[١٧٩].

وينتقل بعد ذلك إلى بيان فائدة التشبيه من الكلام مقررًا أنَّ من محاسنه مجيئه مصدريا، كقوله: أقدام إقدام الأسد، وفاض فيض البحر، وكقول أبي نواس في وصف الخمر:

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتَ وَثَبَ الْجَرَادَ

وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا أَخَذْتَ أَخَذَ الرُّقَادِ[١٨٠]

أي وثبت كوثب الجراد، وأخذت بشاربيها كأخذ الرقاد.

ومن بيان فائدة التشبيه يستطرد إلى القول بأنَّ تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر لا يخلو من أربعة أقسام: إما تشبيه معنى بمعنى، كقولنا: زيد كالأسد، وإمَّا تشبيه صورة بصورة، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ

---

[١٧٨] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. ط١. بيروت لبنان. ص١٦.

[١٧٩] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٨٠] أبو نواس، الحسن بن هاني. ٢٠١٠م. *ديوان أبوبي نواس*. ط١. ج١. تحقيق: محمد نعيم بربر. صيدا- بيروت: لبنان. حرف دال. ص٢٧٥.

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾[١٨١] وإمَّا تشبيه معنى صورة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾[١٨٢]، وإمَّا تشبيه صورة بمعنى، كقولله بى تمام:

وَفتَكْتَ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ وَالْعِدَا فَتْكَ الصَّبَابَةِ بِالْمُحبِّ الْمُغْرَمِ

فشبة فتكه بالمال والأعداء، وذلك صورة مرئية، بفتك الصباة وهو فتك معنوي.

وعنده أن أبلغ هذه الأقسام الأربعة هو تشبيه معنى لتمثيله المعانى الموهومة أو المتخلية بالفنون المشاهدة، وأنَّ ألطف هذه الأقسام هو تشبيه صورة بمعنى، لأنَّ فيه نقل صورة إلى غير صورة[١٨٣].

وتقسيمه السابق للتشبيه هو تقسيم له من حديث المعنى، ولهذا نراه يقسمه مرة أخرى من حيث اللفظ أقساما أربيع أيضًا هي: تشبيه مفرد بمفرد، وتشبيه مركب بمركب، وتشبيه مفرد بمركب، وتشبيه مركب بمفرد، موضحًا كل ذلك بالأمثلة.

وهو يعني بتشبيه مفرد بمفرد تشبيه شيء واحد بشيء واحد، كما يعني بالمركب تشيه شيئين بشيئين فما فوقهما، كقول بعضهم في الخمر:

وَكَأَنَّ وَكَأَنَّ حَامِلُ كَأْسَـــــــــهَا إِذْ قَامَ يَجُولُهَا عَلَى النَّدَمَاءِ

شَمْسُ الضُحَى رَقَصَتِ فَنَقَّط جِهَهَا بَدْرُ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجَوْزَاءِ[١٨٤]

فقد شبه الشاعر هنا ثلاثة أشياء بثلابة أشياء: شبه الساقي بالبدر، وشبه الخمر بالشمس، وشبه الحبب الذي فوقها بالكواكب.

---

[١٨١] القرآن٣٧. الآية ٤٨.

[١٨٢] القرآن٢٤. الآية ٣٩.

[١٨٣] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٢.

[١٨٤] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٢.

بعد ذلك ينتقل ابن الأثير إلى الحديث عن الكناية والتعريض في موضع آخر من كتابه ذاكرًا في مستهل حديثه أنَّ علماء البيان من أمثال الغانمي وأبي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي قد خلطوا الكناية بالتعريض، ولم يفرقوا بينهما، ولم يعرّفوا كليهما بتعريف يميزه عن الآخر.

وقبل أن يتعرض هو لتعريف كل منهما يورد تعريف علماء أصول الفقه للكناية وهو "أنَّها اللفظ المحتمل"، أي أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه. ويعقب ابن الأثير على هذا التعريف بأنه تعريف فاسد، إذ ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية، فقد يدل اللفظ على المعنى وعلى خلافه، وليس بكناية[١٨٥].

وتمهيدًا لتحديد مفهوم الكناية عنده يقول ابن لأثير: "أنَّ الكناية إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز، وجاز حملها على الجانبين. وأمَّا التشبيه فليس كذلك ولا غيره من أقسام المجاز، لأنه لا يجوز حمله إلاَّ على جانب المجاز خاصة، لو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى.

ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد أسد، لا يصح إلاَّ على جانب المجاز خاصة، وذاك أنَّا شبهنا زيدًا بالأسد في شجاعته، ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى، لأنَّ زيدًا ليس ذلك الحيوان ذا الأربع، والذنب، والوبر، والأنياب والمخالب، وإذا كان الأمر فحدّ الكناية الجامع لها هو أنَّها كل لفظة دلَّت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[١٨٦]، فكنى بذاك عن النساء والوصف الجامع بينهما هو التأنيث، كما يجوز حمله على المجاز[١٨٧].

---

[١٨٥] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٢-٤٣.

[١٨٦] القرآن. القصص ٢٨. الآية ٢٣.

[١٨٧] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٣-٤٤.

ثمَّ يعرض ابن الأثير بعد ذلك لاشتقاق لفظة "الكناية" مقررا أنَّها قد تكون مشتقة من لفظة "الكنية" أو من الستر، إذ يقال كنيت الشيء إذا سترته.

كما يقرر أنَّ الكناية ليست نوعا مستقلًا من المجاز، وإنَّما هي جزء من الاستعارة، لأنَّ الاستعارة لا تكون إلاَّ بحيث يطوي المستعار له، وكذلك الكناية فإنَّها لا تكون إلاَّ بحيث يطوي ذكر المكنى عنه[١٨٨].

ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام، فيقال: كل كناية استعارة وليس كل استعارة كناية. هذا فرق بينهما، وفرق آخر هو أنَّ الاستعارة لفظها صريح، والصريح هو دلَّ عليه ظاهر لفظه، والكناية ضد الصريح، لأنها عدول عن ظاهر اللفظ، فهذه فروق ثلاثة بين الاستعارة والكناية ذكرهما ابن الأثير: أحدهما الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والثالث الحمل على جانب الحقيقة والمجاز[١٨٩].

وكما فرَّق بين الكناية والاستعارة، فرَّق أيضا بين الكناية والتعريض الذي عرفه بقوله: "هو اللفظ الدال على الشيء عن طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي"، فإذا قال قائل لمن يتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: "والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان، والبرد قد آذاني" فإن هذا القول وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا القول موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا، وإنَّما دلَّ عليه من طريق المفهوم. وعنده أنَّ التعريض سمي تعريضا لأن المعنى يفهم فيه من عرضه، أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه[١٩٠].

---

[١٨٨] المرجع نفسه. ص٤٤.

[١٨٩] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٤.

[١٩٠] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وكما فرَّق بين الكناية والتعريض من جهة خفاء الدلالة ووضوحها، فرَّق بينهما من جهة اللفظ، فالكناية تشمل المفرد والمركب معا، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، أمَّا التعريض فيختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة.

ودليله على ذلك أنَّ المعنى في التعريض لا يفهم من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنَّما يفهم من جهة التلويح والإشارة، وذلك لا ينهض به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب[١٩١].

وعند ابن الأثير أنَّ الكناية تنقسم قسمين: أدهما ما يحسن استعماله، والآخر ما لا يحسن استعماله، وهو عيب في الكلام فاحش. وقد عرض هنا إلى تقسيم بعض البلاغيين لها فقال: "وقد ذهب قوم إلى أنَّ الكناية تنقسم أقساما ثلاثة تمثيلا، وإردافا، ومجاورة" ثم بين ما يقصدونه من كل قسم، وعقب عليه بأنَّه تقسيم غير صحيح، ولكن تعليقه يبدو فيه شيء من الاضطراب والتناقص.

وأخيرًا يختم ابن الأثر كلامه عن الكناية والتعريض بضرب الأمثلة عليهما بأنَّه نثرا ونظما حتى يزيد ما ذكره عنهما وضوحا[١٩٢].

ذلك عرض موجز لجانب من كتاب المثل السائر لابن الأثير، وهو الجانب الذي تكلَّم فيه عن مباحث علم البيان من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية. وقد قصدنا من وراء هذا العرض الموجز إلى بيان أمرين: مدى إسهام ابن الأثير في تطوير هذه المباحث البيانية عن طريق المادة البلاغية التي قدَمها لنا فيها، وكذلك الطريقة التي سلكها في معالجة هذه المادة وعرضها، وهي طريقة تخالف بلا شك طريقة السكاكي التي قصد بها إلى تأصيل قواعد البلاغة وصبها في قوالب منطقية جافة. وربما التقيا في كثرة

---

[١٩١] المرجع نفسه *والصفحة* نفسها.

[١٩٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٤-٤٥.

التقسيمات والتفريعات، ولكن شتان بين تقسيمات وتفريعات يغلب عليها المنطق وأخرى يجليها الفن ويحببها إلى النفس[١٩٣].

يحيى بن حمزة:

ومن علماء البلاغة أيضا يحيى بن حمزة العلوي اليمني المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وصاحب المصنفات المختلفة في النحو والفقه وأصول الدين والبلاغة. ومما صنفة في البلاغة كتاب "الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، ويقع في ثلاثة أجزاء.

وهو متأثر في كتابه ها بخمسه كتب هي: المفتاح للسكاكي والمثل السائر لابن الأثير، وكتاب التبيان في علم البيان لابن الزملكاني، وكتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي، وكتاب المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك[١٩٤].

وكتابه لا تبدو فيه طريقة مميزة لصاحبه، وإنَّما هو موزع بين طريقة السكاكي، وطريقة الرازي، وطريقة ابن الأثير ومباحثهم وما أصلوه من قواعد البلاغة. وقد بناه على مقدمات ومقاصد وتكملات وسمي كل جانب من هذه الجوانب فنا.

وفي الفن الثاني من الكتاب يتحدَّث عن موضوعات البيان بادئًا بالمجاز ومدخلًا فيه الاستعارة والتمثيل والكناية. وهو في إدخاله الكناية في المجاز يخالف ابن الأثير الذي قرر أنَّ الكناية ليست نوعا مستقلًا من المجاز، نَّما هي جزء من الاستعارة[١٩٥].

ثم يعرض بالقول للاستعارة فيفصل القول فيها ذاكرا تعريف الرماني والرازي وابن الأثير لها، وهو يدخل فيها التشبيه البليغ أو التشبيه المضمر الأداة كما يسميه ابن الأثير. ويسوق على الاستعارة شواهد

---

[١٩٣] المرجع نفسه. ص٤٦.

[١٩٤] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٦.

[١٩٥] المرجع نفسه. والصفحة نفسها.

كثيرة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ومن كلام العرب نثرا وشعرًا. وأخيرًا يتكلم عن أقسام الاستعارة مستأنسا في ذلك بكلام الرازي وبدر الدين بن مالك.

ومن الاستعارة ينتقل إلى التشبيه فيطل الكلام فيه مفيدًا من كل ما ذكره الرازي وبدر الدين بن مالك وابن الأثير[١٩٦].

وأخيرا يتحدَّث عن الكناية ويسوق فيها تعريف عبد القاهر الجرجاني وهو: "والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تالية وردفه في الوجود فيومئ إليه ويجعله دليلا عليه"، مثال ذلك قولهم "هو طويل النجاد" يريدون طويل القامة، وفي المرأة "نؤوم الضحى" والمراد أنَّها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله، كما ترى، معنى ثمَّ لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أنَّ القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى؟[١٩٧].

كذلك ساق تفريعات بدر الدين بن مالك وابن الأثير وبعض علماء أصول الفقه في الكناية، وتحدث عن أقسامها كما تحدث عن التعريض، وأخيرا ختم كلامه في البيان عن التمثيل[١٩٨].

الخطيب القزويني:

وممن استفاضت شهرته في عصره وبعد عصره في ميدان البلاغة العلامة قاضي القضاه جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ للهجرة، ولقب بالخطيب لأنه ولي خطابة دمشق

---

[١٩٦] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[١٩٧] الجرجاني، الإمام أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد. ١٩٩٢م. *دلائل الإعجاز*. ط٣. المرجع السابق. ص٤٤.

[١٩٨] المرجع نفسه. ص٤٥.

في المسجد الأموي الكبير. وكان عالما بارعا مفتنا في علوم كثيرة منها أصول الفقه لبلاغة، وله مصنفات في عدة فنون. وكان معجبا بالشاعر الأرجاني ويقول: إنه لم يكن للعجم نظيره، واختصر ديوانه فسمّاه "الشذر المرجاني" من شعر الأرجاني[١٩٩].

والكتاب الذي عمت شهرته وما يعنينا هنا هو كتابه "التلخيص"، هذا الكتاب الذي لخص فيه الثالث من كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، وغطى به على كل من لخصوه قبله وبعده من أمثال بدر الدين بن مالك، وعبد الرحمن الشيرازي.

والخطيب القزويني في تلخيصه لم يقف من كتاب "مفتاح العلوم" موقف الملتزم كما فعل غيره، وإنما تصرف فيه فترك ما لم يستحسنه وأبقى على ما استحسنه منه وأضاف إليه من آرائه وآراء من سبقوه.

فهو في تلخيصه قد استعبد منه تعقيد السكاكي وحشوه وتطويله كما وضّح غامضة بالشرح والأمثلة، واستبدل ببعض مصطلحاته وتعريفاته الملتوية مصطلحات وتعريفات أخرى أكثر وضوحًا ودقة، وسمح لنفسه فرتب مباحثه ترتيبًا قريبًا يجعلها أيسر منالا. ولم يكتف بذلك وإنما أضاف إليه فوائد عثر عليها في كتب المتقدمين، وزوائد لم يظفر بها في كلام أحد لا بالتصريح ولا بالإشارة. وكل ذلك قد صاغه صياغة حسنة العبارة واضحة الدلالة[٢٠٠].

ولعلّ كل هذا هو ما هيأ لتلخيصه سبيل الشهرة، ولفت الأنظار إليه، فأقبل الناس عليه في عصره وإلى اليوم ما بين دارس وشارح وملخص وناظم.

---

[١٩٩] المرجع نفسه. والصفحة نفسها.

[٢٠٠] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

و"تلخيص المفتاح" يشتمل على مقدمة في الفصاحة والبلاغة، وثلاثة فنون: الفن الأول عقده لمباحث "علم المعاني" والثاني لمباحث "علم البيان"، والثالث لمباحث "علم البديع".

ولما كانت دراستنا في هذا الكتاب قاصرة على "علم البيان" فإن ما يهمنا هنا من كتاب "تلخيص المفتاح" للقزويني هو التعريف إجمالًا بمباحث البيان التي وردت فيه، تاركين الكلام عنها تفصيلًا إلى ما بعد الفراغ من هذه المقدمة[٢٠١].

وإذا عدنا إلى "علم البيان" في كتاب "تلخيص المفتاح" فإننا نجد القزويني يبدأ أول ما يبدأ فيعرف علم البيان بأنه "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه" ويجره هذا التعريف إلى دلالة اللفظ. فيقسمها إلى دلالة وضعية وأخرى عقلية، ثم يخلص ثم يخلص من شرح هاتين الدلالتين إلى أن مباحث علم البيان ثلاثة: التشبيه، والمجاز والكناية[٢٠٢].

وينتقل إلى "التشبيه" فيعرفه ثم يتكلم عن أركانه، وهي: طرفاه ووجهه وأداته، وعن الغرض منه، وعن تقسيم طرفيه إلى حسيين وعقليين أو مختلفيين. كذلك يتكلم عن وجه الشبه وأنواعه، وأدواته: "الكاف، وكأن، ومثل: وما في معناها، وعن أغراض التشبيه وما يعود منها إلى المشبه أو المشبه به[٢٠٣].

بعد ذلك يقسم التشبيه باعتبار طرفيه إلى تشبيه مفرد بمفرد وهما غير مقيدين أو مقيدان، أو ممختلفان، وتشبيه مركب بمركب، وتشبيه مفرد بمركب، وتشبيه مركب بمفرد.

ثم يقسم طرفي التشبيه من حيث تعددهما إلى أربعة أقسام: تشبيه مكفوف، كقوله:

كَأَنَ قُلُوبَ الطَيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَىَّ وَكَرْهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي[٢٠٤]

---

[٢٠١] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[٢٠٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٨-٤٩.

[٢٠٣] المرجع نفسه ص ٣٦.

وتشبيه مفروق كقوله:

النَّشْرُ مِسْكٌ، وَالْوُجُوهُ دَنَا نَيْرَ، وَأَطْرَافَ الْأَكُفَ عُنَمُ[٢٠٥]

وتشبيه التسوية أن تعدد طرفه الأول، كقوله:

صُدَغُ الْحَبِيبِ وَحَالِي كِلاَهُمَا كَاللَّيَالِي[٢٠٦]

وتشبيه الجمع أن تعدد طرفه الثاني، كقوله:

كَأَنَّمَا يَبْسُمُ عَنْ لُؤْلُؤِ مُنْضَدٍ أو بَرَدٍ أو أَقَاحِ[٢٠٧]

ويقسمه باعتبار وجه الشبه إلى تشبيه تمثيل، وتشبيه غير تمثيل، وتشبيه مجمل وتشبيه مفصل. وكذلك يقسمه باعتبار أداته إلى مؤكد وهو ما حذفت أداته، ومرسل وهو ما ذكرت فيه الأداة. وأخيرا يقسمه باعتبار الغرض إلى مقبول أو مسلم الحكم فيه أو مردود[٢٠٨].

ثم يختم كلامه بالحديث عن التشبيه البليغ على أنه أعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة لحذف وجهه وأداته.

ومن كلام عن التشبيه ينتقل إلى الحديث عن مبحث "الحقيقة والمجاز" وهنا يبدأ أول ما يبدأ بتعريف "الحقيقة والمجاز" اللغويين. فالحقيقة اللغوية "هى الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاحا التخاطب" وهو يعني بالوضع تعيين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه، وبهذا يخرج المجاز اللغوي لأنه يدل على معنى بقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

---

[٢٠٤] امرئ القيس، بن حجر بن الحارث الكندي. ٢٠٠٩م. *ديوان امرئ القيس*. تحقيق: درويش الجويدي. المكتبة العصرية صيدا: بيروت. ص٢٦٣.

[٢٠٥] الجرجاني، الإمام عبد القاهر. *أسرار البلاغة*. المرجع السابق. ص٨٤.

[٢٠٦] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. المرجع السابق. ص٢٧٦.

[٢٠٧] المرجع نفسه ص ٥٠.

[٢٠٨] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥١.

ثم يقسم المجاز أولًا إلى مفرد ومركب، وثانيًا إلى مجاز مرسل إن كانت العلاقة فيه غير المشابهة، وإلى استعارة إن كانت العلاقة فيه المشابهة، ويستطرد من هذا بيان علاقات المجاز المرسل وهي: السببية، والمسببية، والجزئية، والكلية، واعتبار ما كان، واعتبار ما سيكون، والمحلية والحالية[٢٠٩].

ومن المجاز المرسل يستطرد إلى الاستعارة فيذكر: أنها قد تقيد أو توصف بالأصلية أو لتحقق معناها حسًّا أو عقلًا، كقول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاَحُ مُقَذَّفِ لَهُ لُبَدُ أَضَافِرُهُ لَمْ تُقْلَمِ[٢١٠]

فالاستعارة هنا في لفظ "أسد" الذي استعير للرجل الشجاع، وهو أمير متحقق حسنا، وكقوله تعالى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾[٢١١] فقد استعير "الصراط المستقيم" للدين الحق، وهو أمر متحقق عقلا.

ويعرض بالتفضيل لقرينة الاستعارة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، وهي عنده إما أمر واحد أو أكثر أو معان ملتئمة، مع التمثيل لكل نوع[٢١٢].

ثم ينتقل إلى تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين قسمين لأن اجتماعها في شيء إما يمكن نحو "أحييناه" في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[٢١٣] أي ضالا فهديناه، وإما ممتنع كاستعارة اسم المعدوم للموجود لعدم غنائه وجدواه، وهو يسمى الاستعارة التي من النوع الأول "وفاقية" والتي من النوع الثاني "عنادية".

---

[٢٠٩] .عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥١

[٢١٠] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. المرجع السابق. ص٣٢٤.

[٢١١] القرآن. ١. الآية٦.

[٢١٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥١-٥٢.

[٢١٣] القرآن. ٦. الآية ١٢٢.

كذلك يقسّم الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع، أي باعتبار المستعار منه والمستعار له والصفة الجامعة بينهما ستة أقسام. وتفصيل ذلك أن الطرفين إن كانا عقليين أو مختلفيين والحسي هو المستعار منه، أو مختلفين والحسي هو المستعار له، فالصفة والجامعة في كل ذلك عقلية. فهذه ستة أقسام[٢١٤].

ومن هذا التقسيم ينتقل إلى تقسيم آخر وهو تقسيم الاستعارة باعتبار لفظها إلى أصلية وتبعية. فالاستعارة تكون أصلية إذا كان اللفظ الذي جرت فيه اسما جامدا، أعني اسم جنس دالا على ذات محسة مثل لفظة "أسد"، أو اسم جنس دلا على معنى، مثل لفظة "قتل" المصدر والاستعارة تكون تبعية إذا كان اللفظ الذي جرت فيه فعلا أو ما اشتق منه أو حرفا.

وأخيرا يقسّم القزويني الاستعارة إلى مطلقة، ومجردة، ومرشحة. فالاستعارة المطلقة هي ما خلت من ملائمات المستعار منه والمستعار له، والاستعارة المجردة هي ما ذكر معها ملائم المستعار له، أما الاستعارة المرشحة فهي ما ذكر معها ملاشم المستعار منه.

وقد يجتمع التجريد والترشيح في الاستعارة كقول زهير السابق:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاَحُ مُقَذَّفٍ لَهُ لُبَدُ أَضَافِرُهُ لَمْ تُقْلَمِ [٢١٥]

فالاستعارة هنا في لفظة "أسد" و"شاكي السلاح" تجريد لأنه وصف يلائم المستعار له أي المشبه، وهو الرجل الشجاع، وباقي البيت "له لبد أظافره لم تقلم ترشيح، لأنه وصف يلائم المستعار منه أي المشبه به، وهو الأسد الحقيقي[٢١٦].

وبعد أن يستوفى القزويني الكلام عن الاستعارة على النحو السابق نراه يعود إلى القسم الثاني من المجاز، وهو المجاز المركب فيعرفه بأنه "اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلى تشبيه التمثيل للمبالغة"،

---

[٢١٤] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٢.

[٢١٥] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. المرجع السابق. ص٣٢٤.

[٢١٦] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٢.

أن حال المتردد في أمره يشبه حال من يقدم رجلا ويؤخر أخرى" إذن هذا التركيب "إني أراك تقدم رجلا وتوخر أخرى" قد استعمل استعمالًا مجازيًا لا حقيقيًا، لأن المتردد في أمره، قد يبدو عليه التردد دون أن يقدم رجلًا ويؤخر أخرى فعلًا. والعلاقة هنا هي علاقة المشابهة بين حال المتردد وحال من يقدم رجلا ويؤخر أخرى.

وهذا النوع الذي سمّاه القزويني "التمثيل على سبيل الاستعارة" عرف فيما بعد باسم "الاستعارة التمثيلية" وقد اقترب القزوني من هذا التعريف عندنا قال: قد يسمى التمثيل مطلقًا، ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا".

بعد ذلك عقد الخطيب القزويني فصلًا خاصًا للاستعارة المكنية قال فيه: قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر يختص بالمشبه به فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيًا عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية" وقد مثل لهذه الاستعارة يقول الهذلي:

وَإِذَا المَنِيَة أَنْشَبَتْ أَظْفَارها ألفيت كل تميمة لاَ تَنْفَعُ[٢١٧]

شبه هنا المنية بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقه بين نفاع وضرار. وإثبات الأظفار للمنية التي هي المشبه هو قبيل الاستعارة التخييلية[٢١٨].

وأخيرا يختم القزويني عرضه للاستعارة بثلاثة فصول يجمل فيها كلام السكاكي عن الحقيقة اللغوية والمجاز اللغوي والاستعارة تعريفا وتقسيمًا وتفريعًا مع مناقشة في بعض آرائه. كما يشير إلى رأي السكاكي في أن حسن الاستعارة التمثيلية والاستعارة التحقيقية، وهي التي يتحقق معناها حسا وعقلا،

---

[٢١٧] المراغي، أحمد مصطفى. ١٩٨٢م. *علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع*. المرجع السابق. ص٣٢٤.

[٢١٨] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٤٣-٤٤.

إنما يكون برعاة حسن التشبيه، بمعنى أن لا يشم رائحته لفظًا، وأن حسن الاستعارة المكنية إنما يكون بحسب حسن المكني عنه[٢١٩].

كذلك يشير في النهاية إلى المجاز العقلي مبينًا أنه لا يكون في اللفظ كما هو الشأن في الاستعارة والمجاز المرسل، وإنما يكون في الإسناد، أي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وهذا أمر يدرك بالعقل، وهذا سمي المجاز العقلي.

ومن الحقيقة والمجاز ينتقل الخطيب القزويني للكلام عن المبحث الثالث والأخير من مباحث علم البيان، وأعني به "الكناية" فيعرفها بأنها "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه"، ويوضح الفرق بينها وبين المجاز الذي لا يجوز إرادة المعنى الحقيقي معه، إذ لا يجوز أن يكون المراد من قولك: "كلمت أسدا" الأسد الحقيقي[٢٢٠].

ثم يقسم الكناية باعتبار المكني عنه ثلاثة أقسام: لأن المكنى :عنه قد يكون موصوفًا، وقد يكون صفة، وقد يكون نسبة. ولم تفته الإشارة هنا إلى أنواع أخرى من الكناية ذكرها السكاكي كالتعريض والتلويح والرمز والإشارة والإيحاء.

ذلك عرض موجز لمباحث علم البيان كما وردت في كتاب "تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني والذي أنهى الكلام فيه يفصل عن بلاغة والكناية والحقيقة والاستعارة، مقررا أن البلغاء أجمعوا على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم، فهو كدعوى الشيء بيّنه، وأن الاستعارة أبلغ من التشبيه لأنها نوع من المجاز[٢٢١].

---

[٢١٩] المرجع نفسه. ص ٥٤.

[٢٢٠] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٦.

[٢٢١] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي أفرغه القزويني في "التلخيص" فإنه على ما يبدو، لم يكن راضيًا عنه كل الرضاء. نقول ذلك لأننا رأيناه يعود فيضع له شرحا سمّاه "الإيضاح" يفصل فيه بعض ما أجمله في "التلخيص" مضيفًا إليه زوائد مما استوحاه من كتابات عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي، وكذلك مما هداه إليه تفكيره ولم يجده لغيره.

وفي ذلك يقول في مقدمة الإيضاح: "هذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح وجعلته على ترتيب مختصري الذي شمّيته "تلخيص المفتاح" وبسطّت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا منه المختصر مما تضمنه "مفتاح العلوم" وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما فاستخرجت زبدة ذلك كله وهذّبتها ورتبتها حتى استقر كل شيء في محله، وإضفت إلى ذلك ما أدي إليه فكري ولم أجده لغيري"[٢٢٢].

ومع ما يتخلل "التلخيص" و"التوضيح" من اعتراضات على السكاكي ومناقشات كثيرة لآرائه فإن القزويني مدين له بمادة الكتابين الأساسية، لأنه استقاها من كتابه مفتاح العلوم مع زوائد من كتابات عبد القاهر والزمخشري ومن آرائه الخاصة التي لم يجدها وجودها.

وكما أقبل القزويني على مفتاح السكاكي تلخيصا وتوضيحا، أقبل كذلك كثيرون من رجال البلاغة شرقًا وغربًا على "تلخيص" القزويني درسًا وحفظًا وتلخيصًا وشرحًا ونظمًا، كأنهم رأوا فيه خير مرجع لقواعد البلاغة.

---

[٢٢٢] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٥-٥٦.

فمن نظمه شعرًا جلال الدين السيوطي وسمي نظمه "الجمان" ووضع شرحًا سماه عقود الجمان" وخضر بن محمد وسمي نظمه "أسلوب البلاغة" وعبد الرحمن الأخضري، وسمي نظمه "الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون"[٢٢٣].

وممن شرحه محمد ين مظفر الخلخالي "٧٤٥ هـ" وسمي شرحه "مفتاح تلخيص المفتاح" وبهاء الدين السبكي "٧٧٣ هـ" وسمي شرحه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، ومحمد بن يوسف ناظر الجيش "٧٧٨ هـ" وسمي شرحه "شرح تلخيص المفتاح"، ومحمد البابرتي "٧٨٦ هـ"، وشمس الدين القونوي "٧٨٨ هـ" وسمى كلاهما شرحه "شرح تلخيص المفتاح للقزويني، وسعد الدين التفتازاني "٧٩٦ هـ" وقد وضع له شرحين: الشرح الكبير، والشرح الصغير للتلخص[٢٢٤].

وهؤلاء الشراح كما يلاحظ هم من علماء القرن الثامن الهجري، وقد استمر الاهتمام بشرح تلخيص القزويني متصلا حتى لنجد من علماء القرن الثاني عشر الهجري من قام بشرحه مثل ابن يعقوب المغربي "١١١٠ هـ" صاحب كتاب "مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح".

وأطول هذه الشروح شرح بهاء الدين الشبكي والشرح الكبير للتفتازاني الذي عدّه القدماء خير شروح التلخيص. ولعلّ مما يلاحظ على من شرحوا "تلخيص" الخطيب القزويني أن معظمهم كانوا على اطلاع واسع بعلوم الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو والبلاغة. ويبدو من شروحهم أنهم لم يكونوا يهدفون إلى توضيح ما في "التلخيص" من إيهام وغموض وتعقيد بمقدار ما كانوا يهدفون إلى الإعلان عن مدى إلمامهم بالفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو وغيرها. وذلك أنهم أقحموا الكثير من قضايا

---

[٢٢٣] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٥-٥٦.

[٢٢٤] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

هذه العلوم على البلاغة إقحاما، وبهذا أضافوا إلى ميراث الصعوبات التي وضعها من تقدمهم على طريق البلاغة العربية صعوبات أخرى أشاعت اليأس في نفوس الراغبين في دراستها والإفادة منها[٢٢٥].

من كل ما تقدم ندرك أن البلاغة العربية منذ أن تولاها في القرن السابع الهجري أمثال الفخر الرازي والسكاكي لم يدخل على مباحثها مباحث جديدة تثريها وتبقيها مطردة النمو والازدهار. ولعل سبب ذلك هو ما ران وغلب على العصور المتأخرة من أعراض الجمود الفكري التي لم تصب البلاغة وحدها وإنما تجاوزتها إلى الأدب شعرًا ونثرًا.

لقد تلقف السكاكي البلاغة العربية التي صنعتها الأجيال السابقة من عبد القاهر والزمخشري وهي زاخرة بالحيوية والحياة مشرفة بالجمال، وكان عليه أن يسلمها إلى من بعده أكثر حيوية وحياة وإشراقا حتى يستمر نموها وازدهارها[٢٢٦].

ولكنه بدل ذلك عليها بعقليته العلمية يصوغها ويصبها ويحصرها في قوالب فلسفية منطقية هادفًا من وراء محاورته إلى جمع قواعدها وتبويب مباحثها، ووضع المعالم والحدود المميزة لعلومها.

ولعلّه كان يظن أنه بذلك يسدي إلى البلاغة أجل صنيع، وما درى أن محاولته كانت من أهم الأسباب التي قيدت البلاغة وحدّت من نشاطها وحيويتها وانتهت بها تدريجيا إلى حال من الذبول والجفاف.

ولو وقف الأمر بالبلاغة عند صنيع السكاكي لقلنا عثرة على طريقها ستنهض منها، ولكن جاء بعده من نظروا إلى ما أتى به السكاكي على أنه البلاغة فالتزموا به وعكفوا عليه درسًا وحفظًا، وتلخيصًا

---

[٢٢٥] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٨.

[٢٢٦] المرجع نفسه ص ٥٨.

وشرحًا ونظمًا، مسخدمين في كل ذلك طرائف تقيد العقول بدل أن تحررها، وتقضي على الأذواق والمواهب والملكات بدل أن ترقى بها وتنميها.....!![٢٢٧].

ومن خلال هذا العرض التاريخي نتعرف إلى مفهوم كلمة الفنون البيانية عند علماء البلاغة وآرائهم المتباينة حول تلك الفنون كما نقف على نشأة علم البيان وتطوره منذ بدأ في العصر الجاهلي على شكل ملاحظات بيانية ثم أخذت تنمو وتتطور على مر الدهور والعصور حتى أصبحت فنا مستقلا بذاته على يدي إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني وما جاء بعده من البلاغيين.

[٢٢٧] عتيق، عبد العزيز. ١٩٨٥م. *علم البيان*. المرجع السابق. ص٥٥-٥٦.